نظرات في حقيقة الاستعلاء بالإيمان

الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م

رقم الإيداع : ١٦٧١٨/ ٢٠٠٤

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشـــر
مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.
ص.ب : ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥
هاتف : ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس : ٤٦٥٠١٢٩

القاهرة ـ ٢١ ش محمد النادى ـ مكرم عبيد ـ مدينة نصر
تليفون ٢٧١٨١٣٣

سلسلة تصحيح المفاهيم

الإسلام وتحديات القرن الحادي والعشرين

نظرات في حقيقة الاستعلاء بالإيمان

سلسلة تصحيح المفاهيم ٤

تأليف وإعداد

ناجح إبراهيم عبد الله

وأقره وراجعه

كرم محمد زهدي — محمد عصام الدين دربالة

علي محمد علي الشريف — أسامة إبراهيم حافظ

حمدي عبد الرحمن عبد العظيم — عاصم عبد الماجد محمد

فؤاد محمود الدواليبي

مكتبة العبيكان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

- ١ -

إنَّ الحمدَ للَّهِ نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذُ باللَّه من شُرور أَنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهدِه اللَّه فلا مُضِلَّ له ، ومَنْ يُضلل فلا هادي له وأشهد أنْ لا إله إلّا اللَّه وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١ ﴾ [الأحزاب] .

أما بعد ، فإن أصدق الحديث كلام اللَّه تعالى ، وخير الهدى هدى محمد صلى اللَّه عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

- ٢ -

لا يزال العلو من صفات المؤمنين الذين أتم اللَّه فى قلوبهم الإيمان ، وترسخ فى عقولهم فهما ، وفى نفوسهم معنى ، وفى جوارحهم كدًا وسعيا .. فهم وحدهم الذين يعملون على بصيرة من دينهم وواقعهم ، لا يأخذون بأمر ويهملون آخر ، ولا يملأون أنفسهم بفهم ويفرغون من تحصيل دواعيه وأسبابه ، ولا يخلطون بين ما تشابه من منهج اللَّه ابتغاء دنيا أو عَرَض قليل .. فتراهم فى استعلائهم بإيمانهم يتخلصون من حظوظ أنفسهم ، وفى توكلهم يستفرغون وسعهم فى تحصيل الأسباب بما يؤكد هذا التوكل ويتممه .. وفى إيمانهم لا ينتصرون للحق بالدعاوى العريضة والأمانى الجذابة ، بل بما استطاعوا من قوة مادية واقعية .

وقد حاولنا فى هذا الكتاب أن نلقى الضوء على بعض المعانى التى اختلط فهمها ، أو لم يحسن قراءتها ، أو تلبست بغيرها ، فلم تثمر ثمرتها المرجوة ، بل قادت إلى عكس المراد منها ، فحصل من وراء ذلك الضرر الكبير .

- ٣ -

فى الفصل الأول .. نعرض لمفهوم الاستعلاء بالإيمان واختلاطه بالاستعلاء بالذات .. وعلى الرغم من أن بينهما خطوطا فاصلة إلا أنها قد تخفى فى كثير من المواقف على كثير من الناس فيتحولون من الانتصار لإعلاء كلمة اللَّه إلى الانتصار لرأيهم ومبادئهم إعزازا لأنفسهم ، بما لذلك من ضرر بالغ على القلوب فضلًا عن جلب أسباب العداوة والبغضاء بين الناس .

وفى هذا الفصل ، نبحث فى سُنَّة النبى صلى اللَّه عليه وسلم وسيرة صحابته رضى اللَّه تعالى عنهم عن المعنى الحقيقى للاستعلاء بالإيمان وبالانتصار المجرد لكلمة التقوى والعمل الصالح لإعلاء منهج اللَّه ، وذلك من خلال الأمثلة المتنوعة الرائعة التى تؤكد هذه المعانى وتقويها وتدفع الوهم بأن الاستعلاء بالإيمان يلزم عنه الشدة والحدة والغلظة على العصاة سواء كانوا كفارًا أم من المسلمين .

وفى هذا الفصل نقرأ :

○ الإيمان والعلو متلازمان ، فكلما زاد الإيمان زاد العلو ، وكلما نقص الإيمان نقص العلو .

- ليست كل حماسة باسم الاستعلاء بالإيمان توافق تعاليم الإسلام .
- الاستعلاء بالإيمان هو إعلاء كلمة الإيمان لا استعلاء بالذات .
- المستعلى بإيمانه هو من كان سعيه لإعلاء كلمة اللَّه ولو كان على نفسه أو الوالدين والأقربين .
- لا تنافى بين معاملة غير المسلمين بالإحسان وبين الاستعلاء بالإيمان .

الاستعلاء بالإيمان ليس معنا الشدة أو الغلظة على العصاة سواء كانوا من المسلمين أم من غير المسلمين .

- إن شريعة اللَّه قامت على ميزان العدل ، وإن أخلاق الإسلام قامت على الإحسان إلى الناس جميعًا .
- لا يعقل أن يأمر الإسلام بالعدل والإحسان إلى الناس ثم يأمر فى ذات الوقت بإهدار حقوقهم ، وإهمال بشريتهم بدعوى الاستعلاء بالإيمان .
- من قصة عبد اللَّه بن حذافة نتعلم أن من سعى فى إعزاز دينه مخالفًا هواه أعزه اللَّه ، ففاز بالدين والدنيا .. ومن سعى فى إعزاز نفسه مخالفًا أخلاق دينه أذله اللَّه ، وخسر دينه ودنياه .

فى الفصل الثانى .. نحاول أن نقرأ التوكل قراءة صحيحة تنفى عنه إهمال الأسباب وتجعله إيجابيًا منتجًا للفرد والجماعة على السواء .. ونبين أن الإسلام كما يهتم بالروح فإنه أيضا يهتم بالجسد الذى هو وعاء الروح بالدرجة التى تقود إلى الإتزان فى الفهم والتكامل بين مفردات الإسلام ، فلا إهمال لعمل القلب ولا اطمئنان لعمل الجوارح وحدها فقط .. بل لابد من هذا « المزيج » المتكامل حتى لا تأتى الثمرة شوهاء أو غير ناضجة .

فى هذا الفصل نتعلم على مائدة الأنبياء « محمد صلى اللّه عليه وسلم ، ويوسف ، ويعقوب ، وداود عليهم السلام ، ومريم التى أحصنت فرجها وغيرهم » .. نتعلم من كل هؤلاء كيف أن الاستعلاء بالإيمان بما يستلزمه من كمال التوكل لا ينافى اعتبار الأسباب والأخذ بها والعمل بمقتضاها .. ثم نرد بإيجاز على بعض ما نراه من فهم خاطىء لهذه المسألة ، على ضوء قصة نجاة موسى عليه السلام وقومه من فرعون .. وقصة إبراهيم عليه السلام مع هاجر وولدهما إسماعيل عليه السلام .

وأخيرا نعرض لأثر الفهم الخاطىء الذى تسرب إلى أذهان كثير من الشباب الإسلامى عن الجهاد الأفغانى نتيجة للاستقبال الخاطىء للمعلومات والقراءة غير الصحيحة للأحداث .

وفى هذا الفصل نقرأ :

- إذا كان التوكل وظيفة القلب ، فإن الأخذ بالأسباب وظيفة البدن .
- ينبغى على المسلم المؤمن بعد أخذه بالأسباب ألا يلتفت إليها و لا يتوكل عليها ، وإنما يتوكل على اللَّه وحده .
- الاغترار بالسبب مما يضر بالإيمان ويستجلب الخذلان .
- السُّنن الكونية لا يستثنى منها شىء إلا ما أراده اللَّه معجزة لنبى ، أو كرامة لولى .. وكلاهما لا تنبنى عليه أحكام .
- الأمة التى تعرض عن الأسباب فلم تأخذ بها هى أمة العاطلين والكسالى التى لا تقوم على أكتافها حضارة .
- الأخذ بالأسباب هو فطرة اللَّه التى فطر الناس عليها .
- من عجز عن فهم الدين فهمًا متكاملًا فليس ذلك لخلل فى الدين وإنما الخلل فى فهمه هو .

- ٥ -

فى الفصل الثالث والأخير .. دعوة صادقة للوقوف مع النفس ومعرفة موقعها الحقيقى فى الحياة دون مبالغة فى تقدير هذا الموقع أو تساهل فى حساباته ؛ لأن من عرف نفسه معرفة حقيقية صحيحة وتحسس قدراتها فى صدق وأمانة عرف كيف يسير بها إلى اللَّه سيرًا يناسب قدراتها ويوافق إمكاناتها .. كما أردنا لهذا الفصل أن يكون دعوة للتعقل وعدم الاندفاع بالحق دون أن تكون لدينا الآليات المناسبة والقادرة على حماية هذا الحق والحفاظ عليه .. مقتدين فى ذلك بالنبى صلى اللَّه عليه وسلم حيث رأى - فى مواقف عديدة - أن ما لديه من إمكانات وقدرات لا تكفى - ماديًّا - للدخول فى مواجهات مع أعداء الإسلام فى الجزيرة العربية ، فجعل صلى اللَّه عليه وسلم يبحث عن وسائل أخرى قد تجنبه خوض غمار هذه الصراعات أو تقويه وتعضده إن هو اضطر للمواجهة وذلك دون الاعتماد فقط على عامل الإيمان الذى اكتمل فى قلبه وبلغ من قلوب أصحابه مبلغًا عظيمًا .

نرى ذلك جليًّا فى غزوة الأحزاب حينما حفر الخندق ليحول دون وقوع القتال ، وفى همه بمصالحة غطفان على ثلث ثمار المدينة لتفكيك قوة الأحزاب وتحجيم قدراتهم .. كما عقد قبل ذلك مع اليهود المعاهدات التى تحفظ له الأمن الداخلى ؛ لأن دعم الجبهة الداخلية هو أولى الخطوات نحو النصر الخارجى ، وغير ذلك من النماذج الأخرى التى تؤكد هذه الفكرة الهامة وتعين على فهمنا لها .

ورحم اللَّه امرءا عرف قدر نفسه فنزل بها منزلتها من غير إفراط ولا تفريط لأنه - وكما يقول الشافعى رحمه اللَّه - من سامى بسلعته فوق ثمنها رده اللَّه إلى قيمته ..

ونقرأ فى هذا الفصل :

- الإيمان وحده لا يكفى فى رد الأعداء ما لم يكن مصحوبًا بقوة الأسباب .
- إذا طغت حماسة الإيمان على دقة الحسابات ولم تقف عند مستوى القدرات جاءت النتيجة بأسوأ ما نكره .
- إن حماسة الإيمان وكمال التوكل لا يشفعان لمن خالف السنن الكونية .

- هل يمكن فى القتال اعتبار العدد فقط دون اعتبار التفاوت الشاسع فى العدة ؟
- المزايدة على الحق تضيع الممكن فى طلب المستحيل .
- القائد الحكيم هو الذى يجمع بين حكم الشرع وبين الواقع ، ولا يهمل قراءة الواقع العملى بحجة إعمال النصوص الشرعية .

○ ○ ○

الفصل الأول :

استعلاء بالـــذات
أم
استعلاء بالإيمان ؟

إن هناك كثيرا من المعانى التى تفرض لنفسها حيزا فى ميدان العمل الإسلامى .. وتبرز لنفسها مكانًا فى واقعه العملى .. ومن ثم فهى تحتاج إلى أن تفرد بكلام .. يرسم حدودها ويشرح مضمونها .. ويحترز مما قد يلتبس بها .. حتى تزداد الحركة الإسلامية بصيرة على بصيرتها .. ونضجا إلى نضجها ، فتؤتى ثمارها طيبة صالحة بإذن ربها ، ونحن من هذا المنطلق سيكون حديثنا بإذن اللَّه عن معنى من هذه المعانى ، ومسألة من هذه المسائل ، يحدونا قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

وهذه المسألة ، هى مسألة الاستعلاء بالإيمان .. والتى قد تختلط بالاستعلاء بالذات وما ينشأ عنه من كبر أو ظلم أو غيرهما ؛ فإنه مما لا شك فيه أن الإيمان يرتفع بصاحبه ويعلو ، حتى يصل به إلى أرفع الدرجات .. وذلك بحسب قوته فى قلب المؤمن .. حتى تفاضلت درجات أهل الجنة فى الجنة لتفاضل الإيمان فى قلوبهم ، يقول صلى اللَّه عليه وسلم : « إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف كما يتراءون الكوكب الدُرى الغابر

فى الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم »[1] ، فالعلو صفة لازمة للإيمان .. وسمة مصاحبة لأهل الإيمان ماداموا مؤمنين .. حتى وإن بدا لأهل الدنيا أن أهل الإيمان فى مهانة أو مكانة دنيوية وضيعة لضعف قوتهم .. أو لقلة عددهم وعدتهم ، أو لغلبة عدوهم وظهوره عليهم حتى وإن بدا ذلك كله إلا أنهم تبقى لهم المكانة العالية والدرجة الرفيعة .. يقول تعالى مخاطبا المؤمنين لما أصابتهم الهزيمة يوم أُحد : ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] .

والعلاقة بين العلو والإيمان علاقة مطردة فى كل من الاتجاهين السالب والموجب ، فبوجود الإيمان يوجد العلو ، يزداد بزيادته وينقص بنقصانه ، وبانعدام الإيمان ينعدم العلو فيكون مع الكفر السفل ، وكلما زاد الكفر زاد السفل ، حتى كان شر الكفار وهم المنافقون فى الدرك الأسفل من النار : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [النساء : ١٤٥] . ويقول تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ ﴾ [التين] .

(١) رواه البخارى [٣٢٥٦] واللفظ له ، ومسلم [١١/٢٨٣١] .

ويقول تعالى : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ ﴾ [التوبة : ٤٠] .

وإذا كان أهل الإيمان لهم العلو ، وأهل الكفر لهم السفل ، فإن هنالك أقواما اجتمع فيهم موجب العلو وموجب السفل ، وهم عصاة المؤمنين .. ولما كانت حسنة التوحيد غالبة على سيئة المعصية كانت الغلبة لموجب العلو ، فكانوا من أهل العلو .. ولكن بقدر ما ينقص من إيمانهم فهم فى سفل بالنسبة لأهل الإيمان الذين استكملوا الإيمان .

من تلك المقدمة السابقة .. نخلص إلى أن الاستعلاء بالإيمان هو صفة من صفات المؤمنين يمدحون بها ، ويندبون إليها ، ويثابون عليها .. وإذا كانت فى مقابلة المعصية لأمر اللَّه ، فهى واجبة عليهم ، باعتبارها دافعًا للطاعة الواجبة ومانعًا من المعصية المحرمة .

ولكن هنالك أناسًا قد فهموا الاستعلاء بالإيمان فهمًا خاطئًا .. فازدروا الناس واحتقروهم وأساءوا مخالقتهم بحجة أنهم أهل معصية أو أهل كفر .. وهنالك أناس ألبسوا الاستعلاء

بالنفس – وهو الكبر – ثوب الاستعلاء بالإيمان .. فلبسوا الحق بالباطل ، وزينوا المعصية بمسمى الطاعة .. وقد يتفق كل من هذين الفريقين فى الظاهر لاتفاق ممارستهم ؛ ولكن الذى يفرق بينهما ، ويميز بين حاليهما هو مكنون الصدور ، ومخبوء القلوب .. وإن كان كلاهما مخطئًا ، وثانيهما أشدُّ خطرًا ، من أجل ذلك نتوقف سويا لنطرح هذه الأسئلة ونناقش تلك المسألة :

أولًا : ما هى حقيقة الاستعلاء بالإيمان ؟!

ثانيا : هل معنى الاستعلاء بالإيمان المعاملة الحادة ، والشدة والغلظة على كل مخالف لمنهج الإسلام سواء كانت مخالفته مخالفة تامة برفضه والكفر به ، أم مخالفة لبعضه مع الإيمان والإقرار به ؟!

ثالثا : هل من الاستعلاء بالإيمان ، إهدار حقوق الناس وعدم الاعتبار ببشريتهم بحجة مخالفتهم للإسلام بالكفر أو بالعصيان ؟!

وقبل أن نجيب على هذه التساؤلات ، نقول : إن الاستعلاء بالإيمان إنما هو فى الحقيقة منبعث من العبودية للَّه ، ليس منبعثًا

عن حظ نفس ولا عن مس هوى .. وطالما أنه عبودية للّه فينبغى أن يكون فيه متابعة نهج اللّه ، وموافقة لسُّنة رسول اللّه ، فضلا عن وجوب تجريد القصد فيه بألا يبتغى فيه غير وجه اللّه فليست كل حماسة باسم الاستعلاء بالإيمان توافق تعاليم الإسلام .. وليست كل غضبة من عامل للدين ، هى غضبة من أجل الدين ، حتى تكون موافقة ومطابقة فى منشئها وتصريفها لما جاء به رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فكم من مستطيل على أناس يظن نفسه من أهل الاستعلاء بالإيمان ، ويزعم أنه يسعى لإظهار عزة الإسلام ، وإنما هو فى الحقيقة باحث عن ذاته ، ساع إلى عزة نفسه .. ومثل هذا يراه الناس جريئا ويصفونه بالشجاعة والبطولة ، حتى تجرى عليه سُّنة التمحيص ، فتنقلب الشجاعة خورًا ، والبطولة نكوصًا .. ولا يعز اللّه إلا من كان صادقًا فى إعزاز دينه ، مخلصًا فى نصرة كلمته . نسأل اللّه أن يحفظنا بفضله ونعوذ باللّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا .

وبعد هذه الكلمة اليسيرة نجيب على الأسئلة التى طرحناها آنفًا :

أولًا : ما هى حقيقة الاستعلاء بالإيمان ؟!

معنى الاستعلاء بالإيمان : طلب المكانة العالية للنفس ، بالترقى على درجات الإيمان .. ومعنى هذا أنه عمل وسعى وفق مقتضى الإيمان ، يترتب عليه علو النفس وارتفاعها .. ولكن هناك من يفهم الاستعلاء بالإيمان على أنه طلب المكانة العالية للنفس بسبب ما هى عليه من إيمان .. ومعنى هذا أن ترى النفس استحقاقها العلو على غيرها لكونها مؤمنة ، ويلزم من هذا أن ينظر المؤمن لنفسه على أنه أعلى مقامًا من المخالف للإيمان بكفر أو عصيان ، فكأنه يقول بلسان حاله : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ [الأعراف : ١٢] . وهذه المقالة الإبليسية ، ولا شك هى عين العجب والكبر ، وهو مناف للإيمان .. فدل ذلك على أن هذا الفهم فهم خاطىء ويتعين الفهم الأول الذى ذكرناه .

هذا ولا يفهم من كلامنا أن المؤمن والكافر لا تفاضل بينهما ؛ فإن هذا لا يتصور أن يكون مرادًا من الكلام ، فإن المؤمن – ولا شك – خير من الكافر ، بل إن المؤمن فيه كل الخير ، والكافر لا خير فيه مادام المؤمن على إيمانه ، والكافر على كفره ،

ولكن هناك فارقًا بين هذا الحكم الذى هو مقارنة بين الكفر والإيمان ، وبين الحكم على ذوات الأشخاص مجردة عن الكفر والإيمان فلا يجوز للإنسان أن ينظر إلى ذاته أنه أفضل من غيره ، وإن كان ذلك الغير كافرًا ؛ فإنه لا يدرى ما يختم له به ، وما يختم لذلك الكافر به ، فالعبرة بالخواتيم .

وكذلك القول بين المؤمن والفاسق من أهل الملة .. بيد أن الفاسق قد خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا .. ففيه الخير والشر .. والكافر لا خير فيه ، والفاسق وإن مات على فسقه فى مشيئة اللَّه ، إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه ، والكافر فى النار إذا مات على كفره .

ويمكن تحرير معنى الاستعلاء بالإيمان ، على أنه إعلاء كلمة الإيمان .. وهذا مقتضى التعريف السابق الذى قررناه ، فإن العمل بمقتضى الإيمان يتضمن إعلاء كلمة الإيمان ، وإنما أردنا تحرير معنى الاستعلاء بالإيمان على هذا المعنى الأخير ليكون ذلك أوضح فى التفريق بين المعنى الصحيح والفهم الخاطىء له ؛ وكذلك يمكن صياغة الفهم الخاطىء للاستعلاء بالإيمان على

أنه الاستعلاء بالذات ، وبهذا يحصل لنا الفرقان بين المعنى الصحيح للاستعلاء بالإيمان ، وبين الفهم الخاطىء له .. فمن كان يعمل لإعلاء كلمة اللَّه ونصرة منهج الإسلام ، فهذا هو المستعلى بإيمانه ، ومن كان يعمل غضبة لنفسه وإعلاء لذاته ، فهذا هو المستعلى بذاته .

ولنتأمل سويًّا قول اللَّه عز وجل : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ ﴾ [التوبة : ٤٠] . وكان يتوقع أن يقول سبحانه : « وكلمة الذين آمنوا هى العليا » لتناسب المقابلة فى السياق ، ولكن الآية جاءت كذلك ؛ لأن العلو إنما هو لكلمة اللَّه ولمنهج اللَّه وليس لذوات المؤمنين المجردة نعم ، إن اللَّه يكافىء المؤمنين جزاءً من جنس عملهم ، فكما أعلوا كلمة اللَّه ، يعلى اللَّه قدرهم ويرفع شأنهم .. ولكن هذا العلو إنما هو منحة من اللَّه لهم ، لا أنه سعى منهم لإحقاقه لأنفسهم ، بل قد نفى اللَّه عن المؤمنين إرادة العلو فى الأرض فقال : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ [القصص : ٨٣] .. وإنما استمد المؤمنون علو

قدرهم ورفعة شأنهم من إيمانهم باللَّه العلى الأعلى ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] . وأما العلو المطلق فلا يكون إلا للَّه العلى العظيم سبحانه وتعالى .

فمن كان سعيه لإعلاء كلمة اللَّه ، ولو كان على نفسه أو الوالدين والأقربين ؛ فذلك المستعلى بإيمانه ، وأما من كان سعيه لتظهر كلمته ، وترى مكانته ، أو يقضى فى غير رضا اللَّه مأربه ويطيع فى معصية اللَّه هواه ؛ فذلك الذى غلبته نفسه ، وصرعه هواه ، حتى هوى فى الحضيض . نسأل اللَّه التوفيق والسداد ، ونعوذ باللَّه وبكرمه من الخذلان .

ثانيًا : هل معنى الاستعلاء بالإيمان الحِدة والغِلظة ؟!

هل معنى الاستعلاء بالإيمان الحدة فى المعاملة والشدة والغلظة على كل مخالف لمنهج اللَّه ، سواء كانت مخالفته مخالفة تامة برفضه والكفر به ، أم مخالفة لبعضه مع الإيمان والإقرار به ؟!

الحق أن هذه المسألة بقليل من النظر فى سيرة النبى صلى اللَّه عليه وسلم .. ووقفة متأنية لفهم روح الإسلام تكون جلية واضحة ، ولذا فدعنا - أخى الحبيب - نتأمل سويًا فى سيرة

النبى صلى اللَّه عليه وسلم ، ولنعش معًا فى ظلال هذه المواقف منها :

○ جاء عتبة بن ربيعة يكلم النبى صلى اللَّه عليه وسلم ليثنيه عن دعوته ، ويعرض عليه المال والسيادة والملك والطب فى مقابل ذلك .. فأنصت له رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم حتى فرغ . فقال له رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ »[1] قال : نعم . قال : « فاسمع منى » ، فقرأ عليه آيات من سورة فصلت ، ثم قال : « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك » .. فانظر يرحمك اللَّه إلى الأدب النبوى العالى ، والذى لا يدانيه أدب ، ولا يساميه خُلق .. انظر كيف أنصت صلى اللَّه عليه وسلم إلى عتبة ، وهو من زعماء المشركين ، رغم أنه يعلم أنه جاء يريد أن يثنيه عن دعوته ويصده عن دينه ؟! وانظر كيف يرد صلى اللَّه عليه وسلم على عتبة مخاطبًا له بكنيته ، متلطفًا فى عبارته ؟! ومعلوم أن المخاطبة

(١) الجامع لأحكام القرآن « القرطبى » [١٥/٣٣٨] بنحوه .

بالكنية هى نوع احترام وأدب .. فهل كان ذلك الأدب ، وذلك التلطف واللين منافيًا للاستعلاء بالإيمان ؟!

○ فى قصة إسلام عدى بن حاتم ، كما أوردها ابن كثير فى البداية والنهاية .. جاء فيها : قال - أى عدى بن حاتم - : فخرجت حتى أقدم على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم المدينة ، فدخلت عليه وهو فى مسجده ، فسلمت عليه ، فقال : « من الرجل ؟ » فقلت : عدى بن حاتم ، فقام رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وانطلق به إلى بيته ، فواللَّه إنه لعامد بى إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة ، فاستوقفته فوقف لها طويلًا تكلمه فى حاجتها . قال : قلت فى نفسى : واللَّه ما هذا بملك . قال : ثم مضى بى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفًا فقذفها إلى ، فقال : « اجلس على هذه » ، قال : قلت : بل أنت فاجلس عليها . قال : « بل أنت » ، فجلست وجلس رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بالأرض . قال : قلت فى نفسى : واللَّه ما هذا بأمر ملك ... إلخ . القصة . والتى كان فيها إسلام عدى .. فتأمل يرحمك

اللَّه فى هذا المشهد الذى يعجب له التاريخ ، وتتصاغر أمامه الحضارات ، فهذا رسول اللَّه الذى شرفه اللَّه على العالمين ، وفتح له الفتوح العظيمة حتى دان له العرب ، وهابه بعد مؤتة العجم .. ومع هذا السؤدد العظيم ، والسلطان المكين ، والمجد الرفيع يدخل عليه عدى بن حاتم وليس من قومه ، ولا على دينه ، بل إنه بالأمس القريب كان فارًا من جنده ، منحازًا إلى أمثاله من عدوه ويسلم عليه ، ويعرفه بنفسه ، فيقوم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم من مجلسه وينطلق بعدى إلى بيته ، ويعامله معاملة ضيفه ، لا معاملة رأس من رءوس عدوه ، ثم يبالغ صلى اللَّه عليه وسلم فى إكرامه رغم أن صليبه كان على صدره - كما ورد فى روايات أخرى - فيناوله رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم الوسادة ليجلس عليها ، ويجلس رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم على الأرض ، ويراجعه عدى فى ذلك ، فيأبى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إلا أن يجلس عدى على الوسادة ، ويجلس هو صلى اللَّه عليه وسلم على الأرض .. فماذا بعد ذلك من التواضع ؟! وماذا بعد ذلك من الإحسان

والكرم ؟! رغم كفر عدى وقتها ، ورغم أن صليبه على صدره ، ورغم أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم متمكن منه ، مسيطر عليه وعلى قومه ، فضلًا عن مقام رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، فهل كان ذلك كله من رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم منافيًا للاستعلاء بالإيمان ؟! أم أنها الحقيقة الساطعة ، التى لا غيم معها ، ولا حجاب دونها ؟! وهى أنه لا تنافى بين معاملة الكفار بالإحسان ، وبين الاستعلاء بالإيمان .. ولا تلازم بين الغلظة والشدة ، وبين الإستعلاء بالإيمان .. هذا ومما لا خفاء فيه ، أن الأمر إذا كان كذلك مع الكفار والمشركين فهو مع عصاة المسلمين من باب أولى .

○ فى غزوة خيبر ، استعمل النبى صلى اللَّه عليه وسلم على السبى بلالًا .. فمر بلال بالسبى على قتلاهن فلما رأينهم ، علت أصواتهن بالبكاء والعويل .. فلما رأى النبى صلى اللَّه عليه وسلم ذلك قال : « أنزعت من قلبك الرحمة يا بلال »[1] فيالها من أخلاق !! وياله من دين !! نعم إنهن مشركات ،

(١) انظر : السيرة النبوية لابن كثير [٢/٥٥٧] .

أخذن فى القتال ، ولكن الإسلام لم يأت ليحرق القلوب ، أو يفت الأكباد ، وإنما جاء بالرحمة ، ولم يبعث رسوله إلا رحمة للعالمين .

فهل الرحمة بهؤلاء المشركات كانت منافية للاستعلاء بالإيمان ؟! أم أنها هى من صميم الإيمان ، ومن طبيعة رسالة الإسلام ؟!

إن بلالًا رضى اللَّه تعالى عنه حين غفل عن مراعاة مشاعر هؤلاء السبايا .. سواء كان ذلك عن عدم تنبه أو قصد منه ، أو كان عن إهمال منه لمشاعرهن لكونهن غير مسلمات .. حين فعل ذلك ، جاءت كلمات النبى صلى اللَّه عليه وسلم مقرعة لبلال تقريعًا شديدًا .. حتى صورته بصورة من ليس فى قلبه رحمة ؛ وإنما أريد به أن فعله ذلك كان منافيًا للرحمة ، وهذا يبرز لنا أخلاق الإسلام ، والتى بها ساد الخليقة ، وعم أرجاء البسيطة ، والتى كانت سببا فى رفعة المسلمين وعلوهم .. فما أحوج الدعاة والعاملين للإسلام اليوم أن يدركوا هذه الحقيقة .. وأن يتعلموا كيف يعاملون الناس مسلمهم وكافرهم ؟ لئلا

يكونوا هم أنفسهم معول الهدم لدعوتهم وسبب ضياع قضيتهم ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا .

من الشواهد السابقة ، نخلص إلى تلك الحقيقة .. وهى أن الاستعلاء بالإيمان ليس معناه الحدة ولا الشدة ولا الغلظة على العصاة سواءً كانوا كفارًا أم من المسلمين .. وأنه لا ينافى الرحمة بهم ، ولا الإحسان إليهم .

فإن قيل : فإن اللَّه سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ٧٣] . وأن هنالك مواقف عديدة فى السيرة فيها الإغلاظ على المشركين .. مثل قول أبى بكر الصديق لعروة بن مسعود : امصص بظر اللات ، أنحن نفر عنه وندعه ؟! وذلك حين قال عروة للنبى صلى اللَّه عليه وسلم : أى محمد ، أرأيت لو استأصلت قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ؟! وإن تكن الأخرى ، فواللَّه إنى لا أرى وجوها ، وإنى أرى أوباشًا من الناس خليقًا أن يفروا ويدعوك »[1] .

---

(١) جزء من حديث طويل رواه البخارى [٢٧٣٤] عن مروان بن الحكم .

○ أجيب على ذلك ، بأن المقام فى الآية وفى موقف أبى بكر مقام خاص .. فالآية تتحدث فى مقام الجهاد والقتال ، وهذا ولا شك مستلزم للغلظة والشدة ، وهل فوق ضرب الرقاب وإزهاق الأرواح من غلظة ؟! وموقف أبى بكر كان فى مقام الحرب النفسية المضادة ، فإن عروة بن مسعود لما قال ما قال - وكان إذ ذاك لا يزال مشركًا - قصد بذلك النيل من معنويات المسلمين ، والتأثير النفسى على قائدهم ؛ ليؤثر بذلك على قراره لمصلحة المشركين الذين أرسلوا عروة إلى النبى صلى اللَّه عليه وسلم ، وهكذا كل موقف للصحابة رضوان اللَّه تعالى عليهم فيه الشدة والغلظة على الكفار ، فذلك لمقام خاص يستوجب ذلك ، وهو بمثابة استثناء من القاعدة العامة والوضع الطبيعى الذى ينبنى على المخالقة بالحسنى واللين والرفق كما فى الحديث : « وخالق الناس بخلق حسن »[1] .

(١) رواه الترمذى [١٩٨٧] وقال الألبانى : حسن ، وأحمد فى المسند [١٥٣١٥] عن أبى ذر رضى اللَّه تعالى عنه . وقال الأرناؤوط : حسن لغيره .

ثالثًا : هل من الاستعلاء بالإيمان إهدار حقوق كل من خالف منهج الإسلام وعدم الاعتبار ببشريته ؟!

إنه مما ينبغى ألا يخفى على العاملين للإسلام ، أن شريعة الإسلام إنما قامت على ميزان العدل .. وأن أخلاق الإسلام إنما قامت على الإحسان ، وذلك مع الناس جميعًا مسلمهم وكافرهم ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [النحل : ٩٠] . فلم يسوغ الإسلام ظلم الناس لكفرهم ، ولم يمنع البر والإحسان إليهم .. فلا يعقل أن يأمر الإسلام بالعدل والإحسان إلى الناس ثم يأمر فى ذات الوقت بإهدار حقوقهم وإهمال بشريتهم بدعوى الاستعلاء بالإيمان .

ولولا ما وقع من ممارسات خاطئة ، تدل على التغافل عن ذلك أو إغفاله ، لما كنا بحاجة إلى سرد الشواهد المثبتة لذلك والبينة له .. وهذه بعض الشواهد التى لا تحتاج إلى مزيد بيان :

١ - قال تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة : ٨] .

٢ - قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٨] .

٣ - قال صلى اللَّه عليه وسلم : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة »(١) .

وهذا النهى الشديد بلفظ اتقوا يدل على تحريم الظلم تحريمًا قاطعًا ، والتشديد فى منعه ، والتنفير منه ، وهذا النهى من النبى صلى اللَّه عليه وسلم لم يختص بالمسلم دون غيره ، وإنما جاء عامًا مطلقًا .. فلا يجوز ظلم المسلم ، وكذلك لا يجوز ظلم غير المسلم .

٤ - قال صلى اللَّه عليه وسلم : « من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا »(٢) .. وهذا صريح فى تكفل الإسلام بحفظ دماء المعاهدين رغم

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) رواه البخارى [٣١٦٦ ، ٦٩١٤] عن عبد اللَّه بن عمرو رضى اللَّه تعالى عنهما .

كفرهم ، وهذا الحديث كافٍ لأن ينزجر به هؤلاء الذين يتهاونون بدماء غير المسلمين ويقدمون على سفكها بغير حق ، وهم يظنون أنهم يعملون بذلك لإعزاز الدين وإعلاء كلمة الإيمان .. وهم فى الحقيقة إنما يهدمون من حيث أرادوا البناء ، ويفسدون من حيث أرادوا الإصلاح .

٥ - جاء فى كتاب « الخراج » لأبى يوسف : أن عمر بن الخطاب رضى اللَّه تعالى عنه رأى شيخًا يهوديًا يسأل الناس ، فسأله عن ذلك ، فعرف أن الشيخوخة والحاجة ألجأته إلى سؤال الناس ، فذهب به إلى بيت ما المسلمين وأمر خازن بيت المال أن يصرف له ولأمثاله من بيت المال ما يكفيهم ويصلح شأنهم ، وقال فى ذلك : « ما أنصفناه إذ أخذنا منه الجزية شابًا ثم نخذله عند الهِرَم »[1] .. فانظر يرحمك اللَّه إلى رحمة الإسلام المتمثلة فى عمر الفاروق ، كيف رحم بشرية هذا الشيخ اليهودى ، ولم يرض لها ذل السؤال ، حتى فرض لذلك الشيخ اليهودى ولأمثاله حقًا لم يروا هم أنفسهم أنهم

(١) ذكره الإمام السرخسى فى « المبسوط » كتاب الزكاة [٣/٢] .

يستحقونه ؛ وإنما هو حق أوجبته لهم رحمة الإسلام ، الذى لم تقتصر رحمته على المسلمين ، بل شملت العالمين مسلمهم وكافرهم .. يقول تعالى فى وصف النبى محمد صلى اللَّه عليه وسلم : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] فدين أوجب لأمثال هؤلاء ممن لا يدينون به ، مثل هذه الحقوق التى لم يروها هم لأنفسهم ، والتى تحمى كرامتهم الإنسانية ، كيف يتصور أنه يهدر حقوقهم أو يهمل بشريتهم ؟!

٦ - بعد فتح مصر على يد عمرو بن العاص رضى اللَّه تعالى عنه وتوليته عليها بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، استبق ابن لعمرو بن العاص مع ابن قبطى من أقباط مصر الذين ظلوا على نصرانيتهم ، فسبق ابن القبطى ابن عمرو ، فما كان من ابن والى مصر إلا أن أمسك بسوطه وضرب ابن القبطى قائلًا : خذها وأنا ابن الأكرمين ، فأشار الناس على القبطى بالذهاب إلى المدينة المنورة للشكاية إلى عمر بن الخطاب مما فعل ابن واليه .. فما كان من عمر رضى اللَّه تعالى عنه إلا أن أرسل يستدعى عمرو بن العاص وابنه ، فلما مثلا بين يديه أعطى الخليفة ابن

القبطى سوطًا وأمره أن يضرب ابن الوالى - ابن فاتح مصر - ، وبالفعل ضرب ابن القبطى ابن عمرو بن العاص بالسوط ، ثم قال له عمر : أدرها على صلعة عمرو .. فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنما ضربنا من ضربنا ، فأجابه عمر بن الخطاب : ما ضربك إلا بسلطان أبيه ، ولو شئت أن تضربه ما منعناك ، ثم التفت إلى عمرو بن العاص رضى اللَّه تعالى عنه وقال قولته الشهيرة : « متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا »[1] .

هذه القصة أبلغ من أن يُعلق عليها ، أو أن يبرز ما فيها من معان .. ولكنا نشير إلى ما فيها من شاهد على احترام الإسلام لبشرية غير المسلمين ، وتكفله بحمايتهم ، وتمكينهم من حقوقهم ، حتى ولو كانت على أمير من أمراء المسلمين العظام .. فانظر إلى هذه الإشارات :

(أ) ابن والى مصر يسابق ابن قبطى .. وهذا يبين سلاسة الإسلام فى بناء نسيج الحياة .. فهنالك تسابق بين المسلم والكتابى ولم يكن هذا منافيًا لعلو الإسلام ولا للاستعلاء بالإيمان .

(١) ذكره الحاكم فى المستدرك على شرط الصحيحين [٣/٧٠٦] .

(ب) إشارة الناس على القبطى بالذهاب إلى المدينة للشكاية إلى عمر بن الخطاب ، إن كان هؤلاء من المسلمين ، فهذا يدلنا على المنهج الإسلامى والنهج الذى سار عليه المسلمون فى معاملة غيرهم ممن يعيشون معهم فى بلادهم ؛ وأنهم يحترمون حقوقهم ، ويقدرون إنسانيتهم كل احترام وتقدير .. وإن كان هؤلاء الناس من غير المسلمين ، فهو أبلغ فى الدلالة على ذات المعنى السابق ، بل ويعتبر شهادة تاريخية ، على احترام الإسلام لحقوق غير المسلمين وتكفله بحمايتها .

(جـ) إرسال عمر بن الخطاب - خليفة المسلمين - إلى والى مصر وابنه يستدعيهما من مصر إلى المدينة ليقطع هذه المسافة الطويلة ، بما تتكلفه من مشقة السفر ، وإنفاق من بيت مال المسلمين يدلنا دلالة قوية وقاطعة على تعظيم الحقوق ، واحترام الكرامة البشرية ، والصيانة التامة لحريات الناس ، التى كفلها لهم الإسلام ، وإن كانوا على غير ملة الإسلام .

(د) تمكين عمر ابن القبطى من ابن عمرو بن العاص ، ودفعه السوط إليه ليضربه به كما ضربه به ابن عمرو ، ثم عرض عمر

ابن الخطاب على ابن القبطى أن يدير السوط على صلعة عمرو ابن العاص والى مصر وفاتحها .. هل هناك حفظ للحقوق واحترام للبشرية فوق هذا ؟! وهل كان ذلك إهانة للإسلام ، أو إعلاء للنصارى على المسلمين ؟! أم هل كان ذلك مخالفًا لعزة الإسلام ، أو منافيًا لاستعلاء الإيمان ؟! أم أنه عين الرفعة والكرامة للإسلام ، وعين الاستعلاء للمسلمين ؟!

(هـ) هذه الكلمة العظيمة الرائعة من عمر بن الخطاب رضى اللَّه تعالى عنه والتى جاءت بصيغة الاستفهام الإنكارى « متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟! » ، ومعنى هذا الاستنكار من عمر بن الخطاب ، أن استعباد الناس أمر منكر بيِّن الإنكار ، وأنه لم يكن يومًا من منهج الإسلام ولا من رسالته .. وأن كل ممارسة وقعت على هذه الصورة ، فالإسلام منها برىء .. فالإسلام لم يأت ليعبد بشرًا لبشر ، وإنما جاء بتوحيد العبودية للَّه وحده .. ويفهم من هذا أن الإسلام يحترم بشرية الإنسان ، ويتكفل له بحفظ حريته ، والدفاع عن كرامته .. فليس معنى سلطان المسلمين على غيرهم أن يعاملوهم معاملة العبيد ، فيهدروا حقوقهم ، ويمتهنوا بشريتهم .

(و) انظر كيف فرق عمر بن الخطاب بين الحقوق والمعاملات ، وبين العقيدة والعبادة ؛ فإنه ما من شك أن الإسلام يبطل عقائد هؤلاء النصارى وعبادتهم ، ومع ذلك فهو فى معاملته لأهل هذه العقائد والعبادات الباطلة لا يستكرههم على تركها ، ولا يبيح لأتباعه أن يستكرهوا أهل الكتاب على ترك عقائدهم .. وأما فى الحقوق والمعاملات فالجميع فيها سواء ، لا يميز المسلم على غيره .

وبعد أن استعرضنا هذه الشواهد الستة ، وهى غيض من فيض .. نستطيع أن نخلص إلى أن الإسلام يحترم حقوق غير المسلمين ، ولا يفرق ميزان عدله وأحكام قضائه بين مسلم وغيره فى إثبات الحقوق وإيصالها لمستحقيها .. ومن ثم ، فليس إهدار حقوق غير المسلمين وانتهاك بشريتهم من الاستعلاء بالإيمان فى شيء بل هو مناف للإيمان ، مناقض للعدل والقسط الذى قامت عليه السماوات والأرض .. وإذا كان الأمر كذلك مع غير المسلمين ، فهو مع عصاة المسلمين من باب أولى .

وإجمالاً لما سبق .. وبعد أن أجبنا على تلك الأسئلة التى طرحناها ، وعشنا مع سيرة النبى صلى اللَّه عليه وسلم وصحابته بما يعد تطبيقًا عمليًا للإجابة على ما فيها نقول : إن الحدة والشدة والغلظة على عصاة المسلمين وعلى غير المسلمين وإهدار حقوقهم وعدم الاعتبار ببشريتهم ليس من الاستعلاء بالإيمان فى شيء ، وإنما هو استعلاء بالذات بما يعنيه ذلك من العجب والكبر وما يجره من الظلم الذى حرّمه ربنا على نفسه وجعله بيننا محرمًا [1] .

وقبل الخاتمة .. يجدر بنا أن نذكر بعضًا من الصور المضيئة المشرقة التى سطرها التاريخ ، والتى حوت أروع نماذج الاستعلاء بالإيمان .. وأبرز مفهوم له وأوضح بيان لحقيقته ، وبحسبنا أن نذكر فى ذلك قصة ذلك الصحابى الجليل عبد اللَّه ابن حذافة بن قيس السهمى رضى اللَّه تعالى عنه فقد وجه

(١) رواه مسلم [٥٥/٢٥٧٧] عن أبى ذر رضى اللَّه تعالى عنه عن النبى صلى اللَّه عليه وسلم فيما روى عن اللَّه تبارك وتعالى أنه قال : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا .... » الحديث .

عمر بن الخطاب رضى اللَّه تعالى عنه جيشًا إلى الروم وفيهم عبد اللَّه بن حذافة ، فأسره الروم ، فعرض عليه ملك الروم أن يتنصَّر ويشركه فى ملكه فأبى ، فأمر به فصلب وأمر برميه بالسهام فلم يجذع فأُنزل ، وأمر بقدر فصب فيها الزيت وأُغلى عليه ، وأمر بإلقاء أسير فيها فإذا عظامه تلوح ، فأمر ملك الروم بإلقاء عبد اللَّه بن حذافة فيها إن لم يتنصر ، فلما ذهبوا به بكى ، قال : ردوه . فقال : لم بكيت ، قال : تمنيت أن لى مائة نفس تلقى هكذا فى اللَّه .. تعجب منه ملك الروم ، وقال : قبّل رأسى وأنا أُخلى سبيلك . فقال : وعن جميع أسارى المسلمين ، قال : نعم . فقبل رأسه فخلى عنهم .. فقدم بهم على عمر ، فقَبَّل عمر رأسه [1] .

وفى رواية .. أن ملك الروم أمرهم أن يتركوه ويجعلوه فى بيت ومعه لحم خنزير مشوى وخمر ممزوج فلم يأكل ولم يشرب ، وأشفقوا أن يموت . فقال : أما إن اللَّه عَزَّ وجل قد كان أحله لى ، ولكن لم أكن لأشمتك بالإسلام .

---

(١) ذكره ابن حجر فى الإصابة [٤/٣] .

وقد اشتملت هذه القصة على أوجه متعددة وصور مختلفة للاستعلاء بالإيمان منها :

١ - رفض عبد اللَّه بن حذافة التنازل عن دينه معرضًا عن إغراء ملك الروم له بأن يشركه فى ملكه .. وفى هذا استعلاء بالإيمان عن زينة الدنيا وشهواتها .

٢ - ثبات عبد اللَّه على دينه عندما أمر به ملك الروم فصلب ، ثم أمر برميه بالسهام .. وكذلك ثباته حين أُلقى الأسير أمامه فى قدر الزيت المغلى حتى لاحت عظام الأسير ، ثم هدد بأن يلقى نفس المصير .. وفى هذا استعلاء بالإيمان على الحياة وعلى رهبة القتل وبشاعة التعذيب .

٣ - عدم أكل عبد اللَّه من لحم الخنزير وعدم شربه من الخمر حتى كاد يموت رغم علمه أن اللَّه أحلهما له للضرورة .. وفى هذا استعلاء بالإيمان أن يشمت به أعداء الإسلام .

٤ - بعد أن يئس ملك الروم من عبد اللَّه بن حذافة ، وعلم أنه لا يرتد عن دينه ، أراد أن يحفظ ماء وجهه ، فطلب من عبد اللَّه أن يقبل رأسه فى مقابل أن يخلى سبيله ، وهذا يبرز لنا

الحالة النفسية لملك الروم ، ويشعرنا بأن ملك الروم قد رأى عبد اللَّه فى مرتبة عالية ومنزلة سامية يتصاغر ملك الروم أمامها ويستشعر من نفسه الانهزام أمام هذا الثبات العظيم ، وهذا الاستعلاء الإيمانى الرائع ، فطلب ذلك الطلب من عبد اللَّه ، ليستعيد لنفسه الشعور بكبريائها الذى اندحر أمام ذلك الإيمان العظيم .

٥ - قبول عبد اللَّه أن يُقبل رأس ملك الروم فى مقابل الإفراج عنه وعمن معه من أسارى المسلمين ، وفى هذا استعلاء بالإيمان عن حظ النفس من أنفة وكبرياء .

ولعله يثور فى النفس تساؤل تعجبى .. كيف يكون عبد اللَّه الذى ثبت ذلك الثبات العظيم أمام القتل والتعذيب ، كيف يكون هو نفسه الذى يَقبل أن يُقبل رأس ملك الروم ؟! والحق أن الإجابة على هذا التساؤل هى التى يكمن فيها المفهوم الصحيح الواضح للاستعلاء بالإيمان والفرقان البين بينه وبين الكبر والاستعلاء بالنفس والذات .. والإجابة هى أن عبد اللَّه ابن حذافة رضى اللَّه تعالى عنه لم يكن يدور حول ذاته ، ولم تكن

تحركه عزة نفسه ، ولم يكن يكتنفه كبرياؤه وأنفته .. وإنما كان يدور مع الإسلام حيث دار ، وكانت حركته وفقًا لما يقتضيه إيمانه ، وتتطلبه مصلحة دينه ، ولم يكن يكتنفه إلا الهدى ودين الحق .. وهذا هو عين الاستعلاء بالإيمان وحقيقته .. فإيمانه أعلى فى نفسه من كل رغبة من رغباته ، وإن كانت حياته أو عزة نفسه .. فحينما تعارضت حياته مع إبقائه على دينه أهدر حياته وأبقى على دينه فكافأه اللَّه بأن حفظهما له جميعًا وأعزه وأعلى شأنه ورفع قدره .. وحينما تعارضت عزة نفسه وأنفته مع مصلحة الإسلام ، وذلك بأن يقبل رأس ملك الروم لإطلاق سراح أسارى المسلمين ، قدم مصلحة الإسلام على عزة نفسه ، فكافأه اللَّه بأن جمع له الخيرين ، فحرر أسارى المسلمين وقبل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رأسه وأحق على كل مسلم أن يقبل رأسه .

هكذا يكون حقًّا الاستعلاء بالإيمان .. فرضى اللَّه عن عبد اللَّه وأرضاه .

وفى الختام .. وبعد أن استعرضنا هذه القصة الرائعة .. نقول للعاملين للإسلام .. دوروا مع الإسلام حيث دار ، ولا تدوروا

حول ذواتكم .. فإن الاستعلاء بالإيمان هو إعزاز الدين لا إعزاز النفس .. وإن من سعى فى إعزاز دينه مخالفًا هواه أعزه اللَّه ، ففاز بالدين والدنيا .. ومن سعى فى إعزاز نفسه مخالفًا أخلاق دينه ، أذله اللَّه فخسر دينه ودنياه .

واحذروا أيها الدعاة أن تناقضوا الإيمان بدعوى الاستعلاء بالإيمان ، أو بزعم عزة الإسلام واحذروا أن يرى أحدكم لذاته فضلًا على غيره ، وأن يرى نفسه خيرًا من غيره .. فلا يدرى ما يختم له به ، ولا ما يختم لذلك الغير به .. بل الحذر كل الحذر أن تكون رؤية النفس والاستكبار على الخلق سببًا فى الفتنة فى الدين ، فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء (١) .

اللَّهم إنا نعوذ بك من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا .. اللَّهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك .. اللَّهم يا مصرف القلوب اصرف قلوبنا إلى طاعتك .

وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين .

---

(١) رواه مسلم [١٧/٢٦٥٤] عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضى اللَّه تعالى عنهما .

الفصل الثانى

الاستعلاء بالإيمان
لا يُنافى اتخاذ الأسباب

« ينبغى للمؤمن أن يكون مستعليا بإيمانه فوق الماديات .. وألا يلتفت قلبه إلى الأخذ بالأسباب » .. كلمات جميلة ورائعة .. ولكن من ورائها من الخلط ما يجعل المسلم يتخذ دينه روحانية أشبه برهبانية النصارى التى ابتدعوها ، والتى تتنافى مع رسالة الإسلام وشريعته .. فإن الإسلام دين اللَّه الذى خلق الإنسان وعلم كنهه .. فشرع له من الأحكام ما يناسب بشريته .. ولما كان الإنسان مركبا من روح وجسد .. جاء التشريع الإسلامى مراعيا لكل من الجانب الروحى والجانب المادى فى الإنسان ، بحيث لا يطغى جانب على الآخر فيلغيه أو يحد من دوره الذى ينبغى أن يكون .

ونضرب لذلك مثالًا : لما كان الجسد لا قوام له إلا بالغذاء من الطعام والشراب .. ولما كانت النفس لا سكن لها إلا بمعاشرة الأزواج .. أوجب اللَّه على الإنسان مالا قوام له ولا سكن له إلا به .. وأباح له ما فوق ذلك ، ثم نهاه عن السرف وكرهه له .. ولما كانت غلبة الشهوات على الإنسان تفسد إرادته ، وتضعف همته ، واللذين مبعثهما روحه ، شرع اللَّه الصيام ليحدث الاتزان بين ما يحفظ البدن وما يصلح

الروح ، ولما كان البدن لا يطيق وصال الصيام شرع اللَّه للصوم هذا التشريع الحكيم : ﴿ فَٱلْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ ﴾ [البقرة : ١٨٧] .. ولما أراد بعض أصحاب النبى صلى اللَّه عليه وسلم أن يواصلوا الصيام ويخرجوا عما رسمه لهم القرآن نهاهم النبى صلى اللَّه عليه وسلم عن ذلك . فقالوا له : إنك تواصل يا رسول اللَّه . قال : « إنى لست كهيئتكم ، إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقينى »(١) فجعلها صلى اللَّه عليه وسلم خصوصية له دونهم ، وأرجعها إلى سبب يناسب بشريته وبشرية من يخاطبهم ، فقال : « إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقينى » ولم يقل إنى أبيت فلا أحتاج إلى طعام ولا إلى شراب .. بل أثبت أنه يطعم ويسقى .. فالسبب الذى فطره اللَّه عليه لا يزال قائما رغم خصوصيته صلى اللَّه عليه وسلم .

ومن هذا المنطلق الشامل تشعبت كل مسائل الشريعة .. ومنها مسألة التوكل والأخذ بالأسباب .. فجعل الإسلام

---

(١) رواه البخارى [١٩٦٤] ، ومسلم [٦١/١١٠٥] عن عائشة رضى اللَّه تعالى عنها .

التوكل وظيفة القلب ، والأخذ بالأسباب وظيفة الجوارح ليحدث بذلك الاتزان والتكامل بين الروح والبدن .. والذى يوافق بشرية الإنسان .. وقد جاء التوجيه النبوى فى ذلك أبلغ ما يكون ، فقد جاء على منتهى الإيجاز فى قمة البيان والوضوح ، حيث قال صلى اللَّه عليه وسلم للأعرابى حين سأله : هل يعقل ناقته أم يتوكل على اللَّه ؟! قال له : « اعقلها وتوكل »[1] وكأن النبى صلى اللَّه عليه وسلم يقول له : اعقلها بيدك وتوكل بقلبك ، اعقلها بظاهرك وتوكل بباطنك .. اعقلها بما تملك من أسباب وتوكل على من يملكك ويملك الأسباب ؛ فإنه لا تنافى بين عمل الجوارح وعمل القلب ، ولا تنافى بين عمل الظاهر وعمل الباطن ، ولا تنافى بين أخذك بما تملك من أسباب وتوكلك على ربك ورب الأسباب ، بل بينهما فى ذلك جميعا التوافق والتكامل .

ولذلك كان من الخطأ البين سؤال من يسأل : هل التوكل أولى أم الأخذ بالأسباب ؟! فهذا السؤال شأنه شأن سؤال من

---

(١) رواه الترمذى [٢٥١٧] عن أنس بن مالك رضى اللَّه تعالى عنه .

يسأل : هل أغمض عينى لأسمع بأذنى ، أم أسد أذنى لأرى بعينى ؟! فكما أن السمع لا يتنافى مع البصر بل يتكاملان ؛ لأن السمع وظيفة الأذن والبصر وظيفة العين ، ولا تعارض بين الجارحتين ، ولا تناقض بين الوظيفتين ، بل العلاقة بينهما علاقة تكامل ، فالسمع يجمع الصوت والبصر يجمع الصورة فيتكامل للإنسان الإدراك بالصوت والصورة .. فكذلك التوكل عمل القلب والأخذ بالأسباب عمل الجوارح ، ومن ثم فهما يتكاملان ولا يتنافيان .. وكما أن كمال قوة الإحساس والإدراك أن لا تغلب إحدى الحاستين على أختها بما يضعفها ، فلا يغلب السمع على البصر ، ولا يغلب البصر على السمع .. فكذلك كمال العمل وتمامه يكون بالاتزان بين التوكل والأخذ بالأسباب بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر فيضعفه أو يلغيه .

ومن هنا كان من يترك الأسباب بدعوى التوكل ، وكذلك من يعرض عن التوكل اعتمادا على الأسباب شأنهما شأن من أغمض عينيه حتى يسمع بأذنيه .. وهذا لا يخفى خطره ، فإنه ربما كان سببا فى قتل صاحبه .

أما من كان يأخذ بالأسباب فقصر فيها اعتمادا على كمال التوكل .. ومن كان يتوكل ولكن ضعف توكله اعتمادا على قوة الأسباب ، فكلاهما يحصل له التوفيق بقدر ما حصَّل منهما ، ويحرم بقدر ما قصر فى الآخر .

والخلاصة .. أن التوكل والأخذ بالأسباب كليهما واجب ولا تنافى بينهما ، فهذا عمل القلب وهذا عمل الجوارح[1] واجتماعهما معا هو امتداد لطبيعة الشريعة الإسلامية التى تتعامل مع الإنسان على أنه بشر فتراعى فيه كلا من الجانب الروحى والجانب المادى .

---

(١) ينبغى أن يعلم أن حكم الأخذ بالأسباب يتوقف على شيئين : **الأول** : مشروعية السبب ذاته . **الثانى** : حكم المقصد الذى يتوصل بالسبب إليه .. فإذا كان السبب غير مشروع أصلًا كان الأخذ به غير مشروع .. وإذا كان السبب مشروعا فى أصله كان الأخذ به متوقفا على حكم المقصد الذى يتوصل به إليه ويكون حكمه كحكمه ، فإذا كان المقصد واجبا ولا يتوصل إليه إلا بذلك السبب كان الأخذ بذلك السبب واجبا فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وإذا كان المقصد مندوبا أو مباحا أو مكروها أو حراما كان للسبب حكمه .

ومن تلك النتيجة التى خلصنا إليها نقول :

إن الاستعلاء بالإيمان بما يستلزمه من كمال التوكل لا ينافى اعتبار الأسباب وما يستلزمه من الأخذ بها ، والأدلة على ذلك أكثر من أن تحصى ، وأوضح من أن تشرح .. ولكننا نشير إلى طرف منها :

١ - يقول الحق تبارك وتعالى حاكيا عن نبيه يوسف ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ [يوسف : ٤٧] . فهذا نبى اللّه يوسف كخبير اقتصادى يضع خطة اقتصادية لأهل مصر ليدبروا أمورهم بما يحفظ اقتصاد البلاد ، ويصلح معايش العباد خلال أربعة عشر عاما .. فأوصاهم فى السنين السبع المخصبة بأن يتركوا الحب فى سنبله ؛ لأن ذلك أدعى لحفظه من الفساد ، وأدعى لطول مدة بقائه ، وفى نفس الوقت أوصاهم ألا يأكلوا منه إلا قليلا احتياطا للسنين السبع الشداد التى بعد ذلك .

فهذه الخطة الاقتصادية ليست إلا تعمقا فى التفاعل مع الأسباب والأخذ بها ، مع أن يوسف عليه السلام نبى ، ولا أحد أعظم توكلا من الأنبياء .

٢ - قال الحق سبحانه وتعالى حاكيا عن نبيه يعقوب عليه السلام : ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ ﴾ [يوسف : ٦٧] . وقد جاء فى التفسير أن يعقوب عليه السلام أوصى أولاده بذلك وهم ذاهبون إلى مصر ؛ لأنه خشى عليهم العين .. وهذا لا شك من أوضح صور الأخذ بالأسباب لتجنب المكروه .. مع تمام إيمانه بالقدر وكمال توكله على اللَّه .

٣ - وقال تعالى : ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴾ [مريم : ٢٥] . وفى هذه الآية ترتيب المسبب على سببه ، حيث جعل اللَّه هَزَّ مريم للنخلة سببًا لتساقط الرطب عليها فيفهم من هذا أنها يتعين عليها هز النخلة حتى تتساقط عليها الرطب ، فإن لم تفعل لم تسقط عليها الرطب .. فإذا كان التوكل على اللَّه واجبا - ولا شك فى ذلك - فهل يأمر اللَّه بما يخالف ما أوجبه ؟! أم أن هذا دليل قاطع على أن الأخذ بالأسباب لا يتناقض مع التوكل ولا ينافى الإيمان .. ولا يخفى أن مريم كانت فى مقام هى أضعف ما تكون فيه وأحوج ما تكون إلى عون معين ، وفى ذات الوقت هى مصطفاة فى

ذلك لأمر لم يحصل لأحد من العالمين .. ومع ذلك أمرت بأن تبذل ما تستطيع من جهد لتتنزل عليها الرطب ، وفى هذا إشارة جميلة إلى أن العبد عليه الأخذ بما استطاع من سبب ثم يتوكل على اللَّه ، فاللَّه يكفيه مهما كان ضعفه وعجزه .

٤ - وقال تعالى حاكيا عن نبيه داود : ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٨٠] .. ومعنى هذه الآية ، أن اللَّه سبحانه علم نبيه داود عليه السلام صنع الدروع التى تلبس فى الحروب لتكون حصنا ضد الضربات والطعنات . وهو سبحانه يمتن على عباده بذلك ويحثهم على شكره .. ولا شك أنَّ لبس هذه الدروع هو من الأخذ بالأسباب .. فكيف يمتن اللَّه على عباده بتعليمه إياهم ذلك إذا كان غير مشروع أو كان مناقضا للتوكل عليه سبحانه ؟!

٥ - قوله صلى اللَّه عليه وسلم : « إذا سمعتم الطاعون بأرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها »[1] .. هذا الحديث بمثابة القاعدة الذهبية فى الحجر

(١) رواه البخارى [٥٧٢٨] ، ومسلم [٩٢/٢٢١٨] عن أسامة بن زيد رضى اللَّه تعالى عنه .

الصحى ، الذى يحمى المجتمعات من انتشار الأوبئة .. فالنبى صلى اللَّه عليه وسلم بذلك يوصى بالحجر الصحى على الأرض التى يقع فيها الطاعون ، فلا يدخلها أحد ولا يخرج منها أحد .. ولا شك أن هذا من باب الأخذ بالأسباب التى يحترز بها عن الإصابة بالأوبئة .. ولم يكن ذلك أبدا منافيا للتوكل على اللَّه ولا مناقضا للإيمان[1] .

٦ - قوله صلى اللَّه عليه وسلم : « الشفاء فى ثلاثة : شربة عسل ، وشرطة محجم ، وكية نار »[2] .. هل كان ذلك القول منه صلى اللَّه عليه وسلم مخالفا لقول خليل الرحمن إبراهيم : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ ؟! [الشعراء : ٨٠] . هل كان معنى ذلك أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ينسب الشفاء لغير اللَّه ؟! لا شك أنه ليس هناك أحد يقول بأى من ذلك ، ولكن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يتحدث عن

(١) وقد عمل بهذه الوصية خيار أصحاب النبى صلى اللَّه عليه وسلم وهم أعظم الناس إيمانًا ، ومنهم عمر بن الخطاب .. فتأمل فى فهمه العميق ، وتوجيهه الدقيق وهو يقول : نفر من قدر اللَّه إلى قدر اللَّه » .

(٢) رواه البخارى [٥٦٨٠ ، ٥٦٨١] عن ابن عباس رضى اللَّه تعالى عنه .

أسباب الشفاء التى جعلها اللَّه فى خلقه ، والتى مردها إلى اللَّه منشأ وتأثيرا .. فالذى خلقها هو اللَّه .. والذى جعل فيها هذه الخاصية من التأثير لشفاء الأمراض هو اللَّه سبحانه وتعالى .. بينما خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام يخبر أن مسبب أسباب الشفاء ومالكها والمتصرف فيها هو اللَّه سبحانه وتعالى .

ولا شك أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إذ يخبر أصحابه بذلك فهو يندبهم إلى التداوى بها ، وهذا مفهوم بوضوح من كلامه صلى اللَّه عليه وسلم ، إذ هو لازمه وما يترتب عليه ، وهذا - ولا شك أيضا - توجيه منه صلى اللَّه عليه وسلم لأمته للأخذ بأسباب الشفاء ، وهو قطعا لا يخالف التوكل والاستعلاء بالإيمان فى شىء .

٧ - أحواله صلى اللَّه عليه وسلم وهى أعظم شاهد وأوضح دليل .. فمع أنه صلى اللَّه عليه وسلم أعظم الناس إيمانًا .. وهو إمام العالمين فى التوكل على ربه واستعلائه بإيمانه .. فهو القائل لعمه : « واللَّه يا عماه لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره اللَّه أو

أهلك دونه »[1] . هو القائل لصاحبه وهما فى الغار وقد وقف على بابه المشركون : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] . ومع ذلك انظر إليه صلى اللَّه عليه وسلم فى أخذه بالأسباب واجتهاده فى ذلك .

- فقد ادخر ما يكفيه وأهله سنة .. مع أنه أوثق الناس بربه ، وأشدهم يقينا فى رزقه .
- واحتجم صلى اللَّه عليه وسلم من مرضه .. وشاور طبيبين .
- وظاهر صلى اللَّه عليه وسلم فى أُحد بين درعين يحتمى بهما فى القتال .
- وحفر الخندق ليحمى المسلمين فى المدينة من هجوم أعدائهم الذين تحزبوا عليهم .
- ودخل مكة بعد عودته من الطائف فى جوار المطعم بن عدى ولم يقدر على دخولها بغير ذلك .
- وعقد المعاهدات مع اليهود بالمدينة ليؤمن جبهته الداخلية .
- ولم يتوجه لفتح خيبر حتى عقد صلح الحديبية .

---

(١) البداية والنهاية [٣/٦٤] .

- وقد نزل على رأى الحباب بن المنذر يوم بدر فغير موقعه الذى اختاره ونزل بناء على رأى الحباب بن المنذر على أقرب ماء من المشركين .. ولم يقل للحباب إن المسألة مسألة إيمان وتوكل ، وينبغى أن نستعلى على هذه الحسابات المادية .
- وانظر إليه صلى اللَّه عليه وسلم وهو مهاجر من مكة إلى المدينة .. ماذا فعل ؟ وماذا اتخذ من أسباب وتدابير ليتخفى عن أعين المشركين :
- فى ليلة الهجرة أمر عليا أن يضطجع على فراشه صلى اللَّه عليه وسلم ويتغطى ببرده الحضرمى الأخضر .
- ولما ذهب إلى أبى بكر ليصحبه غادرا منزل أبى بكر من باب خلفى ليخرجا من مكة على عجل وقبل طلوع الفجر .
- وسلك طريقا جنوب مكة يتجه إلى اليمن ، أى : فى عكس اتجاه المدينة تمويها على المشركين وسار فى ذلك الطريق نحو خمسة أميال حتى بلغ جبل ثور .
- ثم دخلا غار ثور وكمنا فيه ثلاث ليال .. وبينما هم فى الغار كان عبد اللَّه بن أبى بكر يأتيهما بخبر قريش فيبيت

عندهما ثم يرجع فى السحر حتى يصبح وكأنه بائت مع قريش بمكة .

○ وكان عامربن فهيرة يروح عليهما بغنم يرعاها لأبى بكر فيسقيهما من لبنها ، وكان عامر يمر بغنمة على أثر عبد اللَّه بن أبى بكر بعد ذهابه إلى مكة حتى يزيل آثار أقدامه .

كل هذه التدابير والاحتياطات وغيرها اتخذها رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم حتى يتخفى عن أنظار قريش ويتمكن من الهجرة إلى المدينة سالماً .

وبينا هو فى الغار ، وقد وقف المشركون على بابه وانقطعت الأسباب .. وقد خشى أبو بكر الصديق أن يراهما المشركون ، فقال للنبى صلى اللَّه عليه وسلم مشفقًا على رسول اللَّه : « يا رسول اللَّه لو نظر أحدهم تحت قدميه أبصرنا »[1] .. وهنا يبرز ذلك التوكل الذى لا مثيل له .. وذلك الاستعلاء الرائع على الأسباب ثقة برب الأرباب سبحانه ، فيقول النبى صلى اللَّه عليه وسلم : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] .

---

(١) رواه مسلم [١/٢٣٨١] .

فانظر كيف كان أخذه صلى اللَّه عليه وسلم بالأسباب .. وفى ذات الوقت انظر إلى توكله صلى اللَّه عليه وسلم على اللَّه واستعلائه على الأسباب لتدرك بجلاء ووضوح أن الأخذ بالأسباب والتوكل على اللَّه لا يتنافيان بل يتكاملان .. فصلى اللَّه على نبينا وسلم تسليما كثيرًا .

من كل ما سبق نعود ، فنقول : إن الأخذ بالأسباب هو منهج الإسلام لا ينافى التوكل ولا يصطدم مع الاستعلاء بالإيمان فى شىء ، وأما كون المؤمن ينبغى أن يستعلى بإيمانه على الأسباب والماديات ، فهذا صحيح من باب آخر غير باب تعطيل الأسباب .. وهذا الباب الذى يصح منه ذلك الكلام ، هو أنه ينبغى على المؤمن بعد أخذه بالأسباب ألا يلتفت إليها ولا يتوكل عليها ، وإنما يتوكل على اللَّه وحده .. وكما قيل : يأخذ بالأسباب ثم يكفر بها أى : يأخذ بها بجوارحه ولا يجعل لها مكانا فى قلبه .

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أن الالتفات إلى الأسباب بالقلب والاغترار بها هو مما يضر بالإيمان ويستجلب الخذلان .. كما

قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾ [التوبة : ٢٥] .. وذلك لما اغتر من اغتر من المسلمين حديثى العهد بالإسلام ، بقوة المسلمين ، فقال قائلهم : « لن نهزم اليوم من قلة »(١) .. وأمَّا الاستدلالُ بوجوب التوكل على إبطال الأسباب وإغفالها فمردود كما بيناه .. واللَّه الموفق .

وبعد ، أحبتى .. قد يقول البعض : إن اللَّه نصر نبيه موسى على فرعون بتوكله مع انعدام الأسباب ، بل مع وجود أسباب الهلكة للمؤمنين ، ويستدلون بذلك على أن الإيمان يكفى المؤمن فلا يحتاج إلى أسباب .. نقول : لا يصلح الاستدلال بذلك على ترك الأخذ بالأسباب ؛ لأن هذه كانت معجزة لموسى عليه السلام ، والمعجزات من خواص الأنبياء ولا ينبنى عليها تشريع ؛ وإنما هى مما يبعث الطمأنينة فى قلوب المؤمنين بأن اللَّه حافظ دينه وناصره ؛ ولأنه لولا هذه المعجزة لم يعبد

---

(١) ذكره السيوطى فى « الدر المنثور » وعزاه للبيهقى فى الدلائل عن الربيع رضى اللَّه تعالى عنه « أن رجلا قال يوم حنين : لن نغلب من قلة ، فشق ذلك على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فأنزل اللَّه عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ قال الربيع : وكانوا اثنى عشر الفا ، منهم ألفان من أهل مكة .

اللَّه فى الأرض بعدها ، فإنه لم يكن على الأرض مؤمن إلا موسى وقومه .. ثم إن هذا حدث لموسى بعد أن فر بقومه من فرعون ناحية البحر ، وهذا الفرار ليس إلا أخذا بالأسباب وينبغى أن يعلم أنه عند انعدام الأسباب فإن اللَّه عز وجل يُنزل على عباده المتوكلين عليه المعونة والنصرة ، ولكن هذه المعونة والنصرة هى بمقياس ربانى لا بمقياس البشر المعهود .. فقد تكون بنصر مادى حقيقى مطابق لمفهوم البشر بما يستتبعه ذلك من إهلاك أعداء الإسلام ، وقد تكون بمجرد إنجاء اللَّه لعبده كما أنجى اللَّه إبراهيم من النار ، وقد تكون بأن يصطفى اللَّه عبده شهيدا كما حدث مع حبيب النجار مع أنه كان من أهل كرامة اللَّه .. ولذلك فإن هذا أيضا ليس مما تبنى عليه أحكام ؛ لأنه غيبى عنا .

○ وقد يقول البعض : إن نبى اللَّه إبراهيم عليه السلام أودع زوجته هاجر وطفله الرضيع إسماعيل بواد غير ذى زرع حيث لا طعام ولا شراب ولا أنيس ولا أسباب من أسباب الحياة وذلك توكلًا منه على اللَّه .

والجواب .. أن الأمر لم يكن كذلك ، وإنما كان تنفيذا لأمر محدد أمره اللَّه به ، وليس لإبراهيم عليه السلام فى ذلك اختيار ،

ومع ذلك فهذا مما يوجب له ولهاجر الطمأنينة ، وهذا صريح من القصة حيث قالت له هاجر : آللَّه أمرك بهذا ؟! قال : نعم . قالت : إذًا لن يضيعنا اللَّه ؛ لأنها تعلم أن اللَّه هو مسبب الأسباب ، فطالما أنه هو الذى أمر بهذا فسيسبب لهم من الأسباب ما يحفظهم وييسر لهم حياتهم .

ولنا هنا سؤال : ماذا لو لم يأمر اللَّه نبيه إبراهيم عليه السلام بذلك ، هل كان سيفعله ؟! وهل كانت ستستجيب له زوجته هاجر دون مراجعة ومناقشة وحساب للأسباب ؟! ولا شك أن هذا التصرف من إبراهيم عليه السلام إنما جرى مجرى تصرفه فى ذبح ولده ، فهو مبنى على الانقياد والاستسلام لا على ترك الأخذ بالأسباب .

○ يتردد على ألسنة البعض من العاملين للإسلام قولهم : إن الأفغان انتصروا على الاتحاد السوفيتى بعدة بنادق .. ويتحدث البعض عن القتال الذى دار بين الأفغان والروس على أنه كان كله مبنيا على العجائب والغرائب التى أكرم اللَّه بها المجاهدين ونقول :

أولاً : إن هذا الكلام إنما انبنى على خيالات وأمنيات لا على قراءة صحيحة للأحداث ، واستقبال صحيح للمعلومات .. ولذلك فإن هذا الكلام ليس له أساس من الصحة .. فالأفغان لم يقاتلوا بعدة بنادق كما يقول هؤلاء ؛ وإنما كانوا يقاتلون بأسلحة ثقيلة ومتطورة .. وكانت تأتيهم أنواع الإمدادات المختلفة من باكستان والسعودية والإمارات .. وكان من وراء ذلك كله الإمدادات الأمريكية والغربية .. ويكفى أن نعلم فى ذلك ، أن أمريكا أمدت المجاهدين الأفغان بصواريخ « ستنجر » فى الوقت الذى لم تكن قد وصلت فيه هذه الصواريخ لإسرائيل طفلة أمريكا المدللة ، وكان يصرف لكل لاجئ أفغانى معونة مالية .. وبالطبع كانت أمريكا تفعل ذلك لتحقيق مصالحها الشخصية حيث كانت تخشى من زيادة التوسع السوفيتى ، وكانت أشد خشية من وصوله للمياه الدافئة فى الخليج العربى . والذى يعنينا من هذا الكلام ، أن هذا هو الواقع الذى كان .. وتلك كانت طبيعة العوامل التى تكمن خلف المجاهدين الأفغان كأسباب .. وبالطبع كانت هذه الأسباب إلى

جانب توكلهم وإيمانهم ، ولكنه أبدا لم يكن الأمر كما قيل بمجرد عدة بنادق دحروا الاتحاد السوفيتى !!!

ثانيًا : هذا الكلام لا يتوافق مع السُّنن الكونية التى سنَّها اللَّه فى خلقه ولم يجعل لها تبديلا ولا تحويلا .. والسُّنن الكونية لا يستثنى منها شىء إلا ما أراده اللَّه معجزة لنبى أو كرامة لولى .. وكلاهما لا تنبنى عليه أحكام .

ثالثًا : إنه لا ينبغى أن يغتر العاملون للإسلام بما يثيره مثل هذا الكلام من حماسة للشباب لحب الدين والعمل على نصرته ، إذ أن هذا الكلام فضلا عن كونه لا يصح تاريخيا فإنه يترتب عليه مفاهيم خاطئة شرعا وواقعا .. وهذا ولا شك له أكبر الخطر على الأمة الإسلامية .. ولعل من الشواهد على ذلك ظهور نظريات فى الجهاد تقوم على عدم الاعتبار بالأسباب طالما أن الإيمان موجود .. فترى هناك من يريد أن يحارب العالم بأسره فى آن واحد ، بينما هو لا يملك من أسباب القوة المعتبرة شيئا .. بل لا يجد مأوى يأويه ، ولا دولة تعينه .. تراه مع ذلك يريد أن يحارب أمريكا فى ١١ سبتمبر ، والروس فى

الشيشان ، والهند فى كشمير ، ويقوم بعمليات على أراضى الإسلام فى السعودية ، واليمن ، والمغرب ، وأندونيسيا وغيرها .

ونتائج ذلك معلومة .. إهدار كثير من دماء أبناء هذه الأمة دون تحقيق أدنى مصلحة للإسلام والمسلمين ، فضلا عما يترتب على ذلك من مفاسد متناهية فى الخطورة على الإسلام والمسلمين .. والواقع خير شاهد ودليل .

ولذلك ينبغى أن يكون الاهتمام بتأسيس أبناء الحركة الإسلامية على الفهم السليم المبنى على أصول ثابتة ، ومعلومات صحيحة وحسابات دقيقة .

● وفى الختام .. نقول لكل مسلم يحب دينه ويعتز بإيمانه ويستمسك بعقيدته :

○ إن أمة أعرضت عن الأسباب فلم تأخذ بها ، إنما هى أمة من العاطلين والكسالى ، لا تقدم خيرا للبشرية ولا تقوم على أكتافها حضارة .. ولا يليق هذا بخير أمة أخرجت للناس .

○ إن الأخذ بالأسباب لا ينافى التوكل ، ولا يناقض الاستعلاء بالإيمان فى شىء .

○ إن الأخذ بالأسباب هو فطرة اللَّه التى فطر الناس عليها ، وهو شرعه الذى ارتضاه لنا وهو المسلك الواجب فى التعامل مع السُّنن الكونية التى سنها اللَّه فى كونه .

○ فمن أراد الثمر فعليه أن يأخذ بأسبابه .

○ ومن حرث فى البحر أو زرع فى الأرض البور ، فلم يخرج له ثمر فلا يلومن إلا نفسه .

○ ومن حارب بغير سلاح ، واتقى بغير درع .. فلا ينتظر إلا الهزيمة ، ولا يتوقع إلا القتل .

○ ومن جاهد ولم يأخذ بأسباب القتال فهزم وشرد فلا يلومن ربه ، ولا يلومن دينه ، ولا يلومن إلا نفسه .

● أخى المسلم :

خذ الدين كله .. ولا تأخذ بعضه وتترك بعضه .. خذ منه التوكل والاستعلاء بالإيمان .. وخذ منه السعى والأخذ بالأسباب .. واعلم أن الدين لا تتناقض شعائره ولا شرائعه .. فمن فهم تناقضا فى شىء من ذلك ، أو عجز عن إدراك التكامل فى ذلك .. فليس ذلك لخلل فى منهج الإسلام ؛ وإنما الخلل فى فهمه .. فإن الإسلام دين اللَّه العليم الحكيم .. واعلم

أن أكمل الهدى وخيره هدى محمد صلى اللّه عليه وسلم الذى أخذ بالأسباب فى الهجرة حتى لم يدع سببا يمكنه الأخذ به ، ثم قال لصاحبه فى الغار والمشركون على بابه : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] .

اللّهم ارزقنا عقلاً رشيدا .. وفهما سديدا .. ودينا قيما .. واهدنا صراطا مستقيما .. وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين ...

○ ○ ○

الفصل الثالث

استِعْلاَؤُكَ بِالإِيمان
لاَ يُنْسِيْكَ قُدُرَاتِكَ

إن من شر ما يبتلى به القوى اغتراره بقوته الموجودة .. وأسوأ منه أن ينخدع الضعيف بإمكانياته المحدودة .. والأسوأ والأسوأ أن يلبس الضعف بلباس القوة .. ويغتر الضعيف بأن يأتى ذكره على لسان عدوه القوى فيظن بذلك أنه يفزعه ويرعبه .. أو أنه بوسعه فعلا أن يقضى عليه .. فتنتج بذلك هذه الصور العجيبة .. والتى كانت نتائجها مؤسفة بالنسبة لأصحابها .

فهتلر كان قويا بالفعل .. ولكنه لما اغتر بقوته فأخذ يتوسع بغير حساب كانت نهايته ونهاية قوته .. وصدام انخدع بالهالات الإعلامية الضخمة التى أثيرت حول قوته . فقاتل إيران ، وغزا الكويت ، وفرق شمل الأمة ، ودخل فى مغامرات خاسرة كلها باءت بالفشل ، ولم ينته الأمر عند مجرد فشل مغامراته ، وإنما دمرت دولته ، وذهبت قوته .

وتنظيم القاعدة رغم أنه لم يعد كونه مجرد تنظيم أو جماعة غير ممكنة .. إلا أنه قد اختلطت عليهم الأمور فكانت لهم حسابات غريبة .. حيث إنهم إن صح التعبير أعلنوا الحرب على العالم بأسره فحاربوا أمريكا فى الحادى عشر من سبتمبر ، وحاربوا روسيا فى الشيشان وداغستان ، وحاربوا الهند فى

كشمير .. وتوعدوا كل الدول الغربية ومدوا مسرح عملياتهم على الأراضى الإسلامية والعربية .. فقاموا بتفجيرات بالى ، والرياض ، والدار البيضاء ، ومن قبل فى اليمن .. كل ذلك وهم لا يملكون من أسباب القوة شيئا مما يعتد به فى ميزان القوى .. فى زمن الصواريخ عابرة القارات ، والقنابل النووية ، والطائرات ذات القدرات الفائقة .. ولئن سألتهم ليقولن نحن أهل الإيمان ، وقد توكلنا على اللّه .. وهذا فى الحقيقة خلط خطير له أسوأ الأثر على الأمة الإسلامية ، حيث أجابوا على عدم امتلاك الأسباب بأنهم معهم الإيمان ؛ وعلى إهمال حساب قدراتهم بأن معهم التوكل .. فخلطوا الأمور خلطا بينا ، لم يقف أثره السيىء عليهم فقط ، وإنما امتد ليصيب كل شبر فى أرجاء الأمة الإسلامية .. إما تدميرا لقوة كانت موجودة .. واستنفادا لطاقات كانت مفيدة وإما بتلبيس هو أشد خطرا على عقول أبناء الأمة من أسلحة عدوها ، والنتائج واضحة ومحددة سقوط أفغانستان ثم تلتها العراق تحت سيطرة أمريكا .. وأصبحت الدول الإسلامية والعربية هدفا محددا للآلة العسكرية الأمريكية .. وموورست عليها الضغوط التى لم

يسبق لها مثيل لنقض البقية الباقية من عرى الإسلام .. وطمس الآثار المتبقية من معالم الهوية الإسلامية .. والذريعة فى ذلك كله الحرب على الإرهاب .. والتى لم تعد هناك دولة تجرؤ على أن تسلك مسلك الحياد فيها فضلا عن مسلك المعارضة .. سيما بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر وما تلاها بعد ذلك من تفجيرات بالى بأندونيسيا ، والرياض بالسعودية ، والدار البيضاء بالمغرب .

ولما كان أثر هذه العمليات مباشرا على الإسلام والمسلمين .. وجب علينا أن نقف معها وقفات بعد وقفات لنناقشها من كل زاوية فيها ونبينها من كل وجه لها .. ومن أهم زوايا هذه التفجيرات .. والتى تعتبر منطلقا لمسلك من يقومون بها أنهم يقيمون حساباتهم على أن الإيمان هو سلاحهم وعدتهم ، وإن لم يكن معهم شيء من أسباب القوة .. أو كانت أسباب القوة لا ترجح كفتهم .. ولذلك نحن نناقش هذه المسألة ونوضحها إن شاء اللَّه .. راجين أن تتوجه كل الجهود فيما يصب فى مصلحة ديننا وأمتنا .

وبداية نقول : إن الإيمان هو حقا سلاح المؤمنين وبه ينتصرون .. ولكن الفصل بين الإيمان وبين الأسباب على وجه يهمل الأسباب هو محل الخطأ .. وقد تحدثنا فى الفصل السابق على أنه لا تنافى بين الإيمان والأخذ بالأسباب .. وفى هذا الفصل سنوضح بإذن اللَّه أن الإيمان له دوره الذى حدده له القرآن .. وأنه ينبغى حساب الإمكانيات وعدم إغفال مستوى القدرات قبل خوض أى قتال .. وإلا فإن السُّنن الكونية لا تحابى أحدا .. فمن واجه الدبابة بالبندقية ، وواجه البندقية بالسكين ، وأراد أن يحارب العالم بأسره فشرد ودمر وماتت جماعته فلا يلومن على الإيمان ، ولا ينقمن على التوكل .. ولا يُسيأن الظن بربه ، ولكن عليه أن يلوم نفسه ؛ لأنها خالفت السُّنن الكونية .. وخالفت ما كان عليه نبينا محمد صلى اللَّه عليه وسلم وأصحابه من حساب للأسباب وتقدير للإمكانيات والقدرات .

وهذا استعراض لبعض الشواهد والأدلة على ذلك :

١ - يقول سبحانه وتعالى : ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن

مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٦]
ففى هذه الآية جعل اللّه فى الإيمان للمؤمنين قوة تغلب ضعف قوتهم ، وأوجب عليهم لذلك الثبات أمام عدوهم إذا كانوا ضعفهم فى العدد وهم مثلهم فى مستوى العدة .. أما إذا تفاوتت العدة على وجه لا تأثير فيه للعدد ، فالاعتبار بمستوى القوة بما يتضمن من عدد وعدة معا .. ونضرب لذلك مثالًا : إذا كان عدد المسلمين على الأرض عشرة آلاف مع كل منهم بندقية .. وكان عدوهم يملك الطائرات قاذفة القنابل والتى لا يمكن رصدها ، وكانت كل طائرة على متنها خمسة أفراد فقط فهل يجب على المسلمين أن يثبتوا أمام عدوهم إذا كان عدوهم خمسة عشر رجلًا فقط معهم ثلاث طائرات ؟!! بالطبع لا يجب عليهم ذلك ؛ لأنه لا طاقة لهؤلاء العشرة آلاف بطائرة واحدة فقط على متنها خمسة أفراد وتقذف بالقنابل المدمرة .. فإن قنبلة واحدة فقط أو قنبلتين قد تكون كفيلة بالقضاء على هذه الآلاف العشرة والذين لا تغنى عنهم بنادقهم شيئا .

فإن قيل : الآية إنما نزلت للتخفيف ونفى الوجوب ، إذا كانت قوة العدو أكبر من ضعف قوة المسلمين ، وتبقى بعد ذلك البشارة بالنصر ولا ينتفى جواز قتال العدو وإن كان أغلب من ضعف قوة المسلمين .

قلنا : إن هذا الجواز ليس مطلقا ، وإنما هو مقيد بأن يغلب على الظن أن تتحقق به مصلحة للإسلام والمسلمين .. أما إذا لم تتأت منه مصلحة أو كانت مفسدته تربو على مصلحته ، فلا أحد يقول بجواز ذلك القتال .. فهل يا ترى إذا واجهنا الطائرات بالبنادق يكون هناك مجرد الظن بإمكان دفع غارات الطائرات ، فضلا عن إمكان إحداث نكاية فيها ؟!! فأى مصلحة يا ترى يمكن تحقيقها والأمر كذلك ؟! ثم إن غارة واحدة كفيلة بقتل الآلاف من المسلمين .. فمن ذا الذى سيتحمل هذه الدماء ؟!! وهل يسوغ مع ذلك أن نقول : إن الإسلام يسوغ مثل هذا القتال ؟ ونقول أيضا : إذا جاز لطائفة ما أن تتحمل ما ليس بواجب عليها من القتال ، على فرض أنها يمكنها تحقيق مصلحة من ذلك . فهل يسوغ لهذ الطائفة

أن تحمل سائر الأمة على قتال لا طاقة لها به ولا يجب عليها ، بل وفيه من المفاسد والأخطار على الأمة مالا طاقة لها به ؟!

ونعود فنقول : هل حساباتنا هذه هى مما أوجبه الإسلام ؟ أم أنها حسابات مادية ينبغى أن نستعلى عنها بالإيمان ؟!

٢ - فى غزوة الأحزاب .. لما علم النبى صلى اللّه عليه وسلم أن إمكانيات المسلمين المادية لا تسمح لهم بصد عدوهم ، فضلا عن هزيمته .. حفر الخندق حول المدينة احتماء من قوة المشركين .. ورغم أنه أعظم الناس إيمانا ومعه خير الناس وأعظمهم إيمانا ، إلا أنه لم يعبر الخندق ليقاتل المشركين ، ولم يحرض أحدا من أصحابه على ذلك ، ولم يسمح لأحد منهم بذلك .. بل كان كل همه صلى اللّه عليه وسلم أن ينصرف الأحزاب عن المدينة .. وكان كل هدفه أن يحفظ قوة المسلمين .. ولما علم النبى صلى اللّه عليه وسلم أن بنى قريظة قد غدروا ونقضوا عهدهم .. وأن ذلك معناه أن يزحف الأحزاب نحو المدينة من ناحية بنى قريظة فى جنوب المدينة حيث كان الخندق محفورا فى شمال المدينة ؛ لذلك فكر النبى صلى اللّه

عليه وسلم أن يصالح غطفان على ثلث ثمار المدينة فى مقابل أن ينصرفوا عن قتاله ويتركوا قريشا وحدها ومعها بنو قريظة .. فهو صلى اللّه عليه وسلم فى ذلك لم يفكر بمنطق أن الإيمان وحده يكفى ولا ضرورة للأسباب ، وكذلك لم يفكر أن معه جيشا مؤمنا يستطيع أن يرد به الأحزاب .. ولكنه حسب إمكانياته ، ولم يغفل قدراته ، وقد علم أنه وإن كان معه جيش متسلح بالإيمان إلا أن هذا الجيش رغم إيمانه لا يستطيع مجابهة الأحزاب .. وقد تعامل مع ذلك كله فى إطار لا يخرج عن حسابات القوة وقواعد الحرب .. مع أنه صلى اللّه عليه وسلم أعظم الناس توكلا واستعلاء بالإيمان .

٣ - فى غزوة الطائف .. حاصر النبى صلى اللّه عليه وسلم ثقيفا مدة غير قليلة ، ونصب عليهم المنجنيق ، ووقعت مراماة أصيب فيها المسلمون بجراحات ، فلما استعصت حصونهم على المسلمين أن يفتحوها انصرف عنهم النبى صلى اللّه عليه وسلم دون أن يفتحوها لما رأى أنه لن يستطيع فتحها .. وهذا يبين أن مسائل القتال تتوقف على حساب الإمكانيات

والقدرات .. وأنها لا تتوقف على مجرد الإيمان والتوكل فقط .. وإلا فلماذا انصرف النبى صلى اللَّه عليه وسلم دون أن يفتح حصون ثقيف ؟!

٤ - فى بيعة العقبة الثانية .. لما قال العباس بن نضلة رضى اللَّه تعالى عنه للنبى صلى اللَّه عليه وسلم : « والذى بعثك بالحق لئن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا » قال : فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « لم اومر بذلك »[1] .

وهنا سؤال : ما هى الحكمة أن اللَّه لم يأمر نبيه بالقتال فى مكة ؟.. الحكمة تكمن فى أن ميزان الأسباب لم يكن فى صف المسلمين الأوائل من صحابة الرسول صلى اللَّه عليه وسلم فى مكة ، وكان قتال الكفار سيؤدى إلى استئصال الفئة المؤمنة الوحيدة الموجودة على وجه الأرض ؛ ولذلك لم يأمرهم اللَّه العليم الحكيم بالقتال .. وهذا كله يدلنا على أن القتال لا يتوقف على عامل الإيمان فقط ، وإنما تقوم حساباته ابتداء

(١) رواه أحمد فى مسنده [٣/٤٦٠] عن كعب بن مالك الأنصارى رضى اللَّه تعالى عنه .

على الأسباب ثم يتدخل الإيمان لحسم الصراع بعد تناسب الأسباب وإحكامها .. واللَّه أعلم .

٥ - بالنظر إلى بعض ما يمكن أن نسميه سياسات استراتيجية التزمها رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فى صراعه مع أعدائه طوال حياته .. نجدها جميعا تشير إشارة واضحة إلى إدراكه صلى اللَّه عليه وسلم دائمًا لإمكانياته إدراكا صحيحا ، وعدم نسيانه صلى اللَّه عليه وسلم قدراته .. رغم ما حققه من انتصارات شده لها العرب والعجم ، فضلا عن كونه رسول اللَّه .

فهو لم يستثر أعداءه عليه جملة واحدة ، بل بمجرد إقامة دولته فى المدينة ، عقد مع اليهود الذين يساكنونه المدينة ما يمكن أن نسميه « باتفاقية دفاع مشترك » .. ولم يحارب صلى اللَّه عليه وسلم على جبهتين فى وقت واحد .. فلم يغز خيبر حتى عقد صلح الحديبية مع قريش ولما تحزب عليه الأحزاب فكر فى تحييد غطفان .. وهذا كله واضح وصريح أنه يجب مراعاة الإمكانيات والقدرات .. وأن ذلك ينبغى ألا يغفل بزعم الاستعلاء بالإيمان إذ لا تنافى بينهما .

٦ - فى غزوة مؤتة .. لما تولى خالد بن الوليد إمارة الجيش خطط مباشرة للانسحاب بالمسلمين حفاظا عليهم مما رأى أنه هلاك محقق مع أنه سيف اللَّه المسلول وجيشه يتألف من خيار الصحابة .. ولما نجح فى الانسحاب بالجيش ورجع إلى المدينة قال لهم الناس : يا فرار . فقال النبى صلى اللَّه عليه وسلم : « بل هم الكرار إن شاء اللَّه ، وأنا فئتهم »[1] . فلماذا انسحب خالد ؟! ولماذا سمى النبى صلى اللَّه عليه وسلم انسحابه كرا ؟! لاشك أن ذلك كله راجع إلى حسابات الإمكانيات والقدرات ..فالمسلمون ثلاثة آلاف وعدوهم يزيد على مائتى ألف .. فلم ينس خالد هذه الحسابات مع عظم إيمانه ومع أنه سيف اللَّه المسلول .. ولك أن تتصور ماذا لو لم ينسحب خالد رضى اللَّه تعالى عنه بالمسلمين ؟! إنه وبنفس المنطق الذى فكر به خالد كان الأمر سيؤول إلى فناء جيش المسلمين عن آخره ، بل كان الأمر لن يتوقف عند ذلك الحد ، بل ربما استتبع ذلك نية الروم القضاء على دولة الإسلام بالمدينة .

(١) راجع سيرة ابن هشام [٥/٢٢:٣٤] .

٧ - فى موقعة الجسر .. طلب الفرس من المسلمين أن يعبروا إليهم الجسر ، فأراد قائد المسلمين أبو عبيدة الثقفى العبور إليهم ، ونهاه المثنى بن حارثة بخبرته العسكرية عن ذلك ؛ لأن ذلك سيمكن عدوهم من إيقاع الهزيمة بهم وقتل أعداد كبيرة منهم .. ولكن أبا عبيدة الثقفى صمم على العبور ، حتى لا يقول الفرس : إن المسلمين جبنوا عنهم .. فكانت حماسة الإيمان هى التى تدفع أبا عبيدة للعبور ، بينما كانت الحسابات العسكرية والتى تمسك بها المثنى تنهى عن ذلك .. فلما أغفلت حماسة الإيمان الحسابات ، ولم تقف عند مستوى القدرات كانت النتيجة هزيمة المسلمين وقتل أربعة آلاف من المسلمين منهم أبو عبيدة الثقفى رضى اللّه تعالى عنه ، فلم تكن حماسة الإيمان وكمال التوكل شافعا لمن خالف الأسباب وأهمل حساب القوة .

● وبعد استعراضنا لهذه الأدلة السابقة نقول :

إن الإيمان له دوره الذى حدده القرآن فىصراع المؤمنين مع أعدائهم .. وإن الاستعلاء بالإيمان ينبغى ألا ينسينا قدراتنا ،

وألا يحملنا على التقصير فى الأخذ بالأسباب .. فإن السنن الكونية لا تحابى أحدا .. فمن أهمل الأسباب فلا يرتقب إلا الفشل ، ولا يتوقع إلا الهزيمة .. سنَّة اللَّه التى قد خلت من قبل .. ولن تجد لسنة اللَّه تبديلا .. ولن تجد لسنة اللَّه تحويلا .

فإن قيل : كيف تقولون هذا والنبى صلى اللَّه عليه وسلم قاتل فى بدر بعدد يساوى ثلث عدد المشركين ، وفى أُحد أقل من الثلث ، وفى الأحزاب كذلك ؟!

نقول : فى بدر لم يكن النبى صلى اللَّه عليه وسلم خارجا للقتال أصلا ؛ وإنما ليغنم عير أبى سفيان فأفلتت العير وجاء الجيش المكى بقيادة أبى جهل لقتال المسلمين .. ولم يكن النبى صلى اللَّه عليه وسلم هو الذى نصب ذلك القتال أصلا .. وفى أُحد كانت قريش هى التى ذهبت إلى قتال النبى صلى اللَّه عليه وسلم تريد استئصال شأفة المسلمين فى المدينة ، فلم يكن هناك بد من القتال .. وفى الأحزاب ، لم يقاتل النبى صلى اللَّه عليه وسلم إلا مراماة يسيرة من خلف الخندق ، وقد تحاشى النبى صلى اللَّه عليه وسلم الالتحام المباشر مع المشركين لعلمه

أن ذلك يؤى إلى استئصال شأفة المسلمين ، وإنما خندق النبى صلى اللَّه عليه وسلم حول المدينة فى شمالها ، ولما غدرت بنو قريظة فكر فى مصالحة غطفان على ثلث ثمار المدينة .. وذلك كله مراعاة لقدرات جيش المسلمين ، واعتبارا لقوة عدوهم .. ثم إنه إذا ساغ إهمال هذه الاعتبارات السابقة ، وقلنا : إنه قد أمكن للعدد القليل مجالدة العدد الفائق بما يزيد على الضعف .. فهل يمكن مقارنة تفاوت العدد فقط مع تفاوت الأسلحة تفاوتا شاسعا ؟! هل يسوغ مع ذلك أن نقول : إن قتال مجموعة لا تتسلح بأكثر من البندقية لدولة تقاتل بالصواريخ عابرة القارات وتملك الأسلحة النووية هو أمر مقبول عقلا ، أو أنه أمر مندوب شرعا ؟!

لا شك أن هذا الأمر أوضح من أن يحتاج إلى دليل من النقل أو العقل .. واللَّه سبحانه أعلم وأحكم .

ولنا هنا وقفة .. نود أن نشير فيها إلى أن المؤمنين ينبغى أن يضعوا لهم من القرارات أو يختاروا من الخيارات ما يتناسب مع ظروفهم وإمكاناتهم ، حتى لا يقعوا تحت طائلة أحد أمرين : إما العجز الذى يتبعه اليأس والفشل ، أو التهور الذى يستتبعه

الدمار والانهيار والفناء .

ثم إن الجماعة المسلمة أو الدولة المسلمة أو الأمة الإسلامية كلها لو وضعت خيارات فوق طاقتها لسخر منها الناس ولتألبت عليها الأمم .. ولننظر إلى هديه صلى اللَّه عليه وسلم بعد الأحزاب ، قال : « الآن نغزوهم ولا يغزوننا »[1] ، فلو أنه صلى اللَّه عليه وسلم قال ذلك فى مكة حين كان مستضعفا ، هل كان ذلك مناسبا أو ملائما لحاله ؟! لاشك أن المشركين وقتها سيعتبرون ذلك هراء وسيسخرون منه صلى اللَّه عليه وسلم ، وربما أدى ذلك إلى تألب المشركين على المسلمين لاستئصالهم والقضاء عليهم وهم وقتئذ لا يملكون إلا أجسادهم المنهكة من وطأة التعذيب مع أن قلوبهم مليئة بالإيمان .

والناظر إلى خطاب القرآن العظيم فى مكة يرى أنه يربى أفراد الجماعة المسلمة على الصبر ويغرس ويعمق فيهم الإيمان ويملأ قلوبهم وجوارحهم بالأخلاق الحسنة والقيم النبيلة ، فهذا ما يتناسب مع حالة هؤلاء المؤمنين وقتها وهو خطاب ملائم لفئة

(١) رواه البخارى [٤١١٠] عن سليمان بن صرد رضى اللَّه تعالى عنه .

مستضعفة لا تملك من أسباب الدنيا والمنعة شيئا .

ثم إنه لما هاجر النبى صلى اللّه عليه وسلم إلى المدينة تغير الخطاب القرآنى ، حيث بدأت قواعد الدولة الإسلامية ترسخ يوما بعد يوم فبدأ الأمر بالدفاع عن الدولة الوليدة وتنزل التشريع بما يقيم كيان الدولة وينظم شئونها .

وبعد انتصارات الدولة الإسلامية فى عهد الرسول صلى اللّه عليه وسلم جاء دور الانتشار والخروج من الجزيرة إلى آفاق العالمية ، فبدأت مكاتبة الملوك والأمراء كمرحلة جديدة تؤذن ببناء حضارة عظيمة تفوق كل الحضارات وتعلو عليها وتسمو فوقها .

فلو أن الخطاب القرآنى قد تبدل وقتها فى مكة ، أكان ذلك سائغا ؟! حاشا وكلا .. فهل يسوغ أن يخاطب المؤمنون وهم لا يملكون شيئا فى مكة بالجهاد أو بإقامة الدولة ؟! وهل يكون مناسبا أن يؤمر هؤلاء المستضعفون بمخاطبة الملوك والأمراء ودعوتهم إلى الإسلام ؟! هل سيسمع لهم أحد إن هم فعلوا ذلك ، أو يلتفت إليهم أحد ؟!

إنها الحكمة البليغة فى وضع كل شىء فى نصابه وأوانه .. فقيادة النبى صلى اللَّه عليه وسلم الحكيمة لأفراد جماعته ثم أمته بعد ذلك تفرض عليه أن يتحسس ويتعرف على ما يمكن لأتباعه وأبناء أمته القيام به ، حتى لا يؤدى بهم التحدث فى أمور لا يقدرون عليها إلى المداهنة وتغيير الحق واعتياد الكذب بقول مالا يستطيعون فعله ، أو إلى استعداء العالم كله عليهم ، فإن المزايدة على الحق تضيع الممكن فى طلب المستحيل .

وكذلك لو نظرنا إلى قول النبى صلى اللَّه عليه وسلم وهو على فراش الموت : « لا يبقى دينان فى جزيرة العرب »[1] لو أنه صلى اللَّه عليه وسلم قال ذلك قبل فتح مكة أو قبل ذلك ، أيكون بوسع الفئة المؤمنة محاربة قبائل العرب جميعا فى الجزيرة ، وكذلك محاربة القبائل التابعة للفرس أو الروم وبالتالى استعداء الفرس والروم .. كل ذلك لم يكن من القائد الحكيم العظيم صلى اللَّه عليه وسلم لمعرفته بقدرات جماعته وأمته وقتها ، فلم

(١) جزء من حديث رواه البيهقى الكبرى [٦/١١٥/١١٤٠٩] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه .

يعرضها للتلف والفناء من جراء قرارات متسرعة أو حماسة متوقدة أو شجاعة فى غير موضعها أو حمية مخلصة فى غير مكانها أو استعلاء بالإيمان دون النظر إلى ما سوى ذلك .

إنها القيادة الرشيدة ، والإمامة الحكيمة التى تختار من الأقوال والأفعال والأحكام ما يتماشى مع ما تستطيعه الأمة كلها .. ومن هنا فعلى كل قائد أو مربى أن ينظرفى واقع أمته وأتباعه وأبنائه فيتخير من الأحكام الشرعية ما يناسبهم .. فإن القائد الحكيم هو الذى يجمع بين حكم الشرع وبين الواقع وبين قدراته وبين ما يخاطبه به الشرع يجمع بين الواجب والواقع ، أى يجمع بين الواجب الشرعى والواقع العملى فلا يترك الواجب الشرعى نتيجة ضغط الواقع عليه ، ولا يهمل قراءة الواقع العملى بحجة إعمال النصوص الشرعية فحسب ، بل يجمع بين ذلك كله فى منظومة متناغمة تنتج ثمارا يانعة وتؤتى أُكلها كل حين بإذن ربها .

● وفى الختام .. نهمس فى أذن شباب الإسلام الطاهر ، الذى يحب اللَّه ورسوله ، ويغار على دينه وحرماته ، فنقول له :

إن اللَّه شرع لنا فى التعامل مع الواقع خيارات متعددة منها الصبر والعفو والصفح والصلح والتحالف وغيرها .

والواجب على المسلمين أن يختاروا من هذه الخيارات ما يناسب واقعهم ويحقق مصالحهم .. أما أن نحصر الإسلام فى القتال ، ونخوض غمار صراع لا طاقة لنا به ، وننسى قدراتنا وإمكانياتنا ونتغافل عن ذلك كله بدعوى الاستعلاء بالإيمان ، فهذا ولا شك مناف لمنهج الإسلام وتشريعه الحكيم .. إذ أنَّ ذلك لا ينتج عنه إلا تمكين لأعداء الإسلام من الأمة ومقدراتها وتضييع لما بقى من عرى الإسلام ، فضلا عن إهدار دماء المسلمين وتعريضهم للإذلال والمهانة .. كما حدث فى أفغانستان والعراق ، وكما وضح من ممارسة الضغوط الشديدة على حكومات البلدان الإسلامية لطمس المعالم المتبقية من الهوية الإسلامية ، فضلا عما سببه ذلك من إحكام الحبل حول رقبة الحركات الإسلامية وشبابها الطاهر .. فهل نحن منتهون ؟!!

اللَّهم اجعلنا هداة مهتدين ، لا ضالين ولا مضلين .. والحمد للَّه رب العالمين .

خاتمـــة

وختاما أخى القارئ .. أرجو أن تكون قد استمتعت بقراءة هذا الكتاب .. وعشت معه لحظات جميلة وسعدت بما فيه من طرح جمع بين الدين والحياة .. وألف بين الواجب والواقع وأطلق العقل فى إطار الشرع .. بما يجمع بين مصلحة الإسلام والأوطان .. ويحقق خير الدنيا والآخرة .

كما أرجو أن يكون هذا الكتاب قد تناول كثيرا من المعانى التى كان المسلمون عامة والشباب خاصة بحاجة إلى إدراكها ووعيها .

وأن يكون قد أجاب على كثير من التساؤلات التى ظلت طويلا تجيش بصدور كثير من الشباب المسلم .. وأن يكون قد فتح أمام الشباب المسلم آفاقا رحيبة من الفهم والبصيرة فى أمر دينهم ودنياهم .. وأن يكون نقلة جديدة إلى مرحلة جديدة من النضج .. ومنطلقا لمزيد من التطور الذهنى والعملى لشباب المسلمين .

ولعله - إن شاء اللّه - يكون إضافة جديدة إلى الفكر الإسلامى الصحيح ينير للمسلمين طريقهم .. ويحدد لهم

معالم سيرهم .. ويرسم لهم شعاعا من التفاؤل وبريقا من الأمل فى عودة الأمة العربية والإسلامية إلى الصدارة .. رغم هذه الظروف الصعبة .. والمرحلة الحرجة التى يمر بها الإسلام والمسلمون .

وإن يكن من كلمة قبل أن أودعَ إخوانى القراء .. فهى كلمات أرسلها إلى عامة المسلمين .. فى هذا الواقع الجارف النازف الذى أصاب البعض بالهزيمة النفسية واليأس والإحباط .. والتى هى مقدمات الهزيمة المادية .. أقول لهم .. احذروا أن يعصف بكم القنوط أو أن يدرككم اليأس .. فإن الليل لا يحل ليدوم .. ولكن لابد من بزوغ الفجر وطلوع النهار .. ولن يعدم السالك فى ليله سراجا ينير له ليله ويضىء له طريقه .. ويبلغه مراده .. واعلموا أن اشتداد المحنة بشير بقرب الفرج فإن أشد ساعات الليل حلكة هى تلك التى تسبق طلوع الفجر .

فلابد من زوال المحنة .. ولابد من نزول الرحمة .. ولابد أن تنكشف الغمة وأن يأتى الفرج من بعد الشدة .. ولابد أن يعز اللَّه الإسلام وبلاد المسلمين .. وهذا وعد حق من رب قدير ..

لا يعجزه شئ فى السماوات ولا فى الأرض .. فاستعينوا باللَّه واصبروا .. واستجيبوا للَّه وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن اللَّه ولى المؤمنين .. وما كان اللَّه ليضيع إيمانكم .. إن اللَّه بالناس لرؤوف رحيم .

وأسأله سبحانه أن يجعل عملى هذا خالصا لوجهه .. وأن يبارك فيه .. وأن ينفع به كل العاملين .. وأن يجنبه الزلل .. ويجعل فيه الرشد .. وإنى لأبرأ إليه سبحانه من حولى وقوتى إلى حوله وقوته .. فما كان من خير فهو محض فضل من اللَّه .. أحمده وأشكره سبحانه عليه .. وإن كان غير ذلك فمن نفسى والشيطان وإنى لأستغفر اللَّه منه ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٣] .

وإنى لأرجو من كل من قرأ هذا الكتاب أن يدعو لى دعوة صالحة وكذلك لأسرتى .. وأنتظر من القراء الكرام آراءهم فى هذا الكتاب وسوف نكون فى انتظار أية اقتراحات .. وإن شاء اللَّه لن تجدوا منا إلا آذانا مصغية .. وصدورا رحيبة .. تسعد بالنصح وتحب الناصحين .

وختاما أدعو اللَّه فأقول : « يا رب إنك أكرم من أن تعذب من حبب الناس فيك أو دل الناس عليك .. فيارب لا تعذب لسانى فإنه كان يدل عليك .. ولا تعذب قلمى فإنه كان يحبب الناس فيك .. فإن قصرت فى حقك يا ربى فإنى أطمع فى عفوك وأنت أهل للعفو فيارب عاملنا بما أنت أهله ولا تعاملنا بما نحن أهله .. فأنت أهل التقوى وأنت أهل المغفرة ونحن أهل الغفلة والتقصير والنسيان .. يا رب تعودنا على كرمك وجودك فلا تحرمنا منهما بذنوبنا وتقصيرنا .. فنحن لا نستطيع أن نحيا لحظة واحدة دون سترك وفضلك وكرمك وبركتك ورزقك .. وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين .

المؤلف / **دكتور ناجح إبراهيم عبد اللَّه**

فهـرس

الموضـــــوع	الصفحة
تقـديم	٥
الفصل الأول : الاستعلاء بالإيمان والاستعلاء بالذات	١٥
الاستعلاء بالإيمان مفهومه وحقيقته	٢٢
هل الاستعلاء بالإيمان يعني الشدة والغلظة ؟!	٢٥
هل الاستعلاء بالإيمان يعني إهدار حقوق الآخرين ؟!	٣٣
الفصل الثاني : الاستعلاء بالإيمان لا ينافي الأخذ بالأسباب	٤٧
التوكل والأخذ بالأسباب قراءة صحيحة	٤٩
التوكل عمل القلب .. والأخذ بالأسباب عمل البدن	٥١
الأدلة على عدم تنافى التوكل مع الأخذ بالأسباب	٥٤
شبهات .. وردها	٦٣
وختـامًا	٦٨
الفصل الثالث : استعلاؤك بالإيمان لا ينسيك قدراتك	٧١
وقفة مع النفس	٧٣
هؤلاء حاربوا العالم ونسوا قدراتهم !	٧٣
الحـركة النازية	٧٣
تنظيم القـاعدة	٧٣
هدى النبي صلى اللّه عليه وسلم فى معرفته لقدراته	٧٦
نصيحة إلى شباب الإسلام	٩٠
خـاتـمة	٩٣
الفهـرس	٩٧